

اعلام الصحراء العربية

مجلد

العدد ١٠٠

الطبعة ١٩٨٠

العدد ١٠٠

العدد ١٠٠

العدد ١٠٠

070

اهداءات ٢٩٩٩

مكتبة

ا.د. عبد الحميد بدوي

القاضي بمعكمة العدل الدولية

أعلام الصحاف العربيين

للكاتب
ابراهيم عبد

مدرس الصحافة وتاريخها بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الاول

الطبعة الثانية مذيلة مژودة

الناشر : مكتبة الآداب بالجامين تليفون ٤٢٧٧٧

المطبعة المنوذجية ٦ سكة الشاوي المطبعة الجديدة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مقدمة الكتاب

تاريخ الصحافة في الشرق العربي حافل بالنخبة المنتقاة من أعلام هذه الصحافة التي أكدت وجودها بالرغم من عمرها القصير بالقياس ، إلى أعمار غيرها من الصحافات ، فإن أقدم صحيفة عرفها العالم العربي صدرت في سنة ١٨٢٨م ، بينما عرفت الأوراق الخيرية والجازيتات الأسبوعية في أواسط أوروبا وغربها قبل ذلك بعدة قرون.

وقد قام على إنشاء الصحافة العربية ، وقدم لها بالجهد والعلم والمال مئات من الصحفيين الأدباء العارفين بأقدار المهنة ، والمؤمنين برسالتها في الحياة ، وقد اصطنعهم القدر لخدمة هذه المؤسسة العلية الرفيعة ، حتى بلغت في أيامنا مكانها من النضج والاستواء .

وقد راجعت هذا الكتاب الذي أقدم فيه لقراء العربية صفوة مختارة من أعلام الصحافة العربية ، وأضفت إليه بعض الفصول ، كما عدلت في بعضها الآخر ، وقد أستعنت في ذلك بالوثائق والأسانيد ، وترجمت لكثير من الشخصيات ، بعد دراسات سابقة قضيت فيها العمر إعداداً وتحضيراً .

وليس في مقدور مؤرخ هذا الجانب من تاريخ الصحافة العربية أن يلم في كتاب واحد بسيرة عظماء الصحفيين جميعاً ، فذلك فوق طاقة الأفراد ، لأن كتب هذه السيرة لا ينفرد بها إنسان واحد ، بل تقتضي أن يساهم كل قادر على تأريخها بما وسعه الجهد ، فنحن نحاول هنا أن نضرب المثل في كتابة سيرة خير الأمثلة لصناع الصحافة وأصحاب الصدارة في تاريخها ، ولا تزال مئات السير موزعة في بطون الكتب أو الصحف أو الأفراد ، تنتظر من يكتب فيها ويؤرخ لها ، ينقب عنها في مصر ولبنان وسوريا والعراق وأوروبا والأمريكتين وغيرها من بلاد الدنيا التي زخرت بمجهودات عظماء الكتاب الصحفيين من

— ٤ —

أبناء العروبة المجددين في أصولها، الضارين الأسوة الطيبة في الكفاح من أجل رسالتها .

وسيجد القارئ في هذه الصفحات تاريخاً شاملاً لبعض الصحفيين من العرب . معظمهم من حملة الأقلام في القرن التاسع عشر ، ولعل التاريخ لهذه الصفوة من الصحفيين أصعب ما يقابل المؤرخ لبعد الشقة بيننا وبينهم ، ولقلة الوسائل التي تكشف ماخفي من أخبارهم ، وحسبي أني حاولت تصوير مناهجهم ، ورسم صورة لجهادهم ، أرجو أن أكون قد وفقت في تصويرها وأبرزت جوانب الخير فيها .

وليس لمثل أن يعد بأكثر من أنه سيحاول مع المحاولين في تأريخ سير عظماء الصحفيين كلها سنحت الفرص ، ووات الظروف ، مستعينا على ذلك بالبحث والتنقيب ، راجيا أن يعينني الله على أداء بعض ما لهذا الجانب التاريخي من حق على كل عامل في شؤون الصحافة العربية ، صحفياً كان أو معلماً لهذه المهنة الكريمة على مدى الزمان .

البرهان

فبراير ١٩٤٨

نشأة الطباعة والصحافة في الشرق الأوسط

سجل تاريخ أوروبا صفحة رائعة عن نشأة الطباعة والصحافة فيها ؛ فصور لنا كيف عرفت المطبعة ، ثم بين لنا مولد الدورية أو الصحيفة ، وقدم لها بمراحلها المختلفة ، فإذا تاريخ الصحافة الأوربية مجموعة من الصور البديعة للكفاح في سبيل الرأى ، بدأ بالخبر المنسوخ ، وهو أول لون من ألوان النشر الصحفي ، ويعت هذه الأوراق الخيرية للخاصة وأصحاب النفوذ في مختلف دول القارة ، ثم هيأت المطبعة فرصة نشر الأخبار المطبوعة للعامة والخاصة على السواء ، ووجد الناس فيها لذة الفائدة ، ومتعة الإشاعة ، ووسيلة للقراءة الخفيفة المفيدة أحياناً ، وإذا الجازيتة تأخذ طريق النضج والاستواء فتصبح الجريدة التي نعرفها إذا استيقظ الصبح أو أدير النهار .

لم يعرف الشرق الأدنى هذه الخطوات ، بل تأخر فهمه لفائدة المطبعة ردها من الزمن ، كانت أوروبا قد جاوزت فيه هذا الدور البدائي في نشر الأخبار المنسوخة والمطبوعة ، ووقفت القسطنطينية حائلاً دون أن يهضم الشرق بولايانه السلطانية هذا الفن ، خوفاً من الرأى الحر أن يلمس ، أو حرصاً على فكرة دينية قد تسمى اليها المطبعة ، ويذكر لنا تاريخها قصة ازدلافها إلى السلطنة العثمانية ، فقد كانت الآستانة أول مدينة في الشرق عرفت الطباعة ، إذ أنشأ فيها يهودى يدعى إسحق جرسون في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى مطبعة عبرية ، وقد نزح من أوروبا لهذا الغرض ، ومضت مطبعته تؤدى رسالتها ثلاثة قرون ، غير أنها اقتصرت على طبع الكتب والتعاليم الدينية ليهود الشرق ، دون أن تتعرض لنشر كتاب علمى أو تاريخى أو أدبى ،

ثم انتقلت المطبعة إلى البلاد الشامية ، واستقرت في دير قزحيا جنوب طرابلس ، حيث كانت حروفها سريانية وعربية مضبوطة بالشكل ، وعالج الفن والذوق طريقة النشر فكان بعض صفحات الكتب في لونين ، وبعضها في إطارات منمقة بديعة الإخراج ، ومنذ عرفت هذه المطبعة في مطلع القرن السابع عشر ، أخذت مدن الشام كحلب تقيم هذه المؤسسات وتنتشر الكتب ، وهي في أغلبها كتب دينية لا تعرض لأى حديث ، ولا تحاول نشر فكرة تخالف مذهب أصحاب السلطان في الحكم ، أو وسيلتهم في تناول الحياة ، ثم عرفت المطبعة العربية في الآستانة والقاهرة ومالطة وبيت المقدس والعراق على التوالي ، وللمطبعة العربية في الآستانة والقاهرة تاريخ حافل ينبغى أن نعرض له في إيجاز .

حاول بعض الأتراك إنشاء مطبعة في القرن السابع عشر ، فأقضى عليها الدين أن المطبعة رجس من عمل الشيطان ، فلم يجرؤ تركي في تركيا على العودة إلى هذه المحاولة إلى أن قىض الله لها نصيراً في شخصين : هما محمد أفندى الحلبي سفير الباب العالي في فرنسا ، وابنه سعيد أفندى الذي صار فيما بعد صدراً أعظم ، والذي هداه عليه ورحلته في فرنسا إلى تعرف أثر الطباعة في حياة الشعوب ، فأخذ على عاتقه الدعاية لتأسيس مطبعة بين أصحاب الرأي في عاصمة الخلافة ، ثم اتصل بالصدر الأعظم وأقنعه بفكرته ، ورجا منه أن يتوسط له عند السلطان ، واقتنع أحمد الثالث سلطان تركيا بفكرة سعيد أفندى فاستكتب شيخ الإسلام ومعاونيه فتوى تؤكد أن المطبعة فضل من الله ! ثم صدر الفرمان العالي موقعا عليه بالخط الشريف سنة ١٧١٢ مرخصا لسعيد أفندى بطبع جميع أنواع الكتب إلا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام ، وهكذا استطاعت الطباعة العربية أن تأخذ طريقها في عاصمة الخلافة ، وتنتقل منها إلى هنا وهناك .

أما تاريخ الطباعة في مصر فيختلف أشد الاختلاف عن تاريخها في الشرق فقد عرفت أصغر المدن في الشرق فن الطباعة وحال الممالك دونها عدة قرون ، إلى أن نزل الجنرال بونايرت بجيوشه وعتاده أرض مصر سنة ١٧٩٨ ، وكان بين العتاد مؤسسة مطبعية ضخمة ، فيها عدة مطابع : إحداها فرنسية وأخرى يونانية وثالثة عربية للدعاية والإعلان ، وعن هذه المطبعة صدرت كراسات الدعاية والمنشورات التي كانوا يلصقونها في الشوارع والحارات ، وعند أبواب المساجد كما يقول الجبرتي في تاريخه عن عهد الفرنسيين ، ثم صدرت عن هذه المطابع عشرات الكتب باللغتين الفرنسية والعربية في الدين والتاريخ والآداب والفنون ، بل كانت هذه المطابع أكثر إنتاجاً وأقوى أثراً بما نشرت من صحف فرنسية ، وبما حاوله الولاة الفرنسيون من نشر صحيفة عربية تصدر عن مؤسستهم الأولى في بلاد المصريين ، فنشاط هذه المطابع في السنوات الثلاث التي قضتها الحملة في مصر يعادل نشاط معظم مطابع الشرق الأدنى في عشرات السنين ، ولم يعرف المصريون المطبعة في تدرجها إلى الكمال النسبي في القرن الثامن عشر ، بل عرفوها كاملة فيما حمل إليهم الفرنسيون من مطابع رسمية أو مطابع حرة نقلت معهم بأصحابها الكلفين المتنامين ، ثم اختفى هذا النشاط المطبعي زهاء عشرين عاماً ، إلى أن تأسست مطبعة مصر الكبرى في بولاق على عهد محمد علي الكبير بين سنتي ١٨١٩ و ١٨٢٠

والملاحظ هنا أن الطباعة في مصر صحبتها الصحافة أيضاً ، وهذا ننص كان في الشرق الأدنى ، فقد شهد المصريون في حملة بونايرت صحيفتين ، إحداهما بريد مصر (Le Courrier de L'Egypte) في ٢٩ أغسطس ١٧٩٨ تحمل أخبار مصر الداخلية ، وهي الأخبار المحلية في القاهرة والأقاليم ، وتوزع كل خمسة أيام ، وكانت تتضمن أحياناً بعض الشعر والأدب ، وكثيراً من الرحلات وأخبار الوفيات وبعض الإعلانات المختلفة ، والصحيفة الثانية التي أنشأها بونايرت ، هي العشرة المصرية La Décade Egyptienne ، وقد تخصصت

لنشر بحوث أعضاء المجمع العلمي المصري ، وهى دراسات فى الزراعة والتعليم والأمراض وكل ما يتصل بشؤون الحياة المصرية ، إلى بعض البحوث العلمية كأمثال لقمان الحكيم وترجمتها الفرنسية ، ثم حاول الجنرال عبد الله مشر ثالث الولاية الفرنسيين وآخرهم إنشاء صحيفة سياسية باللغة العربية تدعى « التنبيه » ولكن الحوادث عاجلته ، فحالت دون نشر أقدم صحيفة عربية فى الشرق ، لو تم لها الظرف والميلاد .

هذا ملخص وجيز لنشأة الطباعة فى الشرق الأدنى ، أما الصحافة فى الشرق فقد نشأت فى كنف الولاية والسلاطين ، نشأت صحافة رسمية فحسب ، وكانت أقدمها الصحافة المصرية . فصر عرفت الصحافة فى « جرنال الخديو » الذى أصدره ولى النعم محمد على رأس الأسرة الحاكمة المصرية حوالى سنة ١٨٢٢ ، وكان يطبع فى مطبعة القلعة بالقاهرة ، ويصدر كل مرة فى مائة نسخة باللغتين العربية والتركية متضمناً الأخبار الرسمية الحكومية وبعض القصص من ألف ليلة وليلة ، وكان جرنال الخديو يرسل إلى رجال الدولة ومأموريها الذين يعنى الباشا بأن يقفروا منه على أحوال البلاد ، وقد بقى هذا الجرنال يصدر لمحمد على وحده بعد إنشاء الوقائع المصرية فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٢٨ ، وهى الجريدة الرسمية الثانية التى أصدرتها حكومة الباشا فى مصر ، وبجانب هاتين الصحيفتين أنشأت الحكومة فى سنة ١٨٣٣ الجريدة العسكرية لشؤون الجيش ، والجريدة التجارية الزراعية فى سنة ١٨٤٨ لشؤون التجارة والزراعة .

وكان الحال مماثلاً فى عاصمة السلطنة ، وإن جاء نشر الصحف فيها متأخراً ، بل لم يكن فى العاصمة التركية إلا جريدة واحدة رسمية هى جريدة لومونيتور أوتومان Le Moniteur Ottoman فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ولم تعرف البلاد الشامية الصحافة رسمية كانت أو حرة إلا فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وقد أنشأت حكومة لوى فيليب الفرنسية صحيفة « المبشر » فى الجزائر سنة ١٨٤٧ باللغتين العربية والفرنسية ، لإرشاد الوطنيين

والمستعمرين إلى الحضارة الجديدة ومشاكل البلاد ومصالحها الزراعية والتجارية والصحية .

هذه الصحافة على عمومها كانت تصدر في كنف الحكومات الشرقية المختلفة ، ولا يملك محررها مهما يكن قدره في عالم الأدب والمعرفة حق نشر موضوع من الموضوعات إلا إذا أتاه الوحي من الوالى أو الأمير ، فاقصر الجهد الصحفي على الصحافة الرسمية ، وشاع في هذه الصحافة نشر الأخبار والدعوة للحكومة ، والحرص على تمجيدها وإعلاء شأنها ، ثم إذاعة بعض آثار من الأدب العربى القديم ، وكان نقلا خالصا والاختيار فيه لا يضيف إلى العلم جديداً أو يثير في النفس رغبة القراءة أو النقد أو التحليل ، لذلك فقد المشرفون على هذه الصحافة كثير آ من صفات الصحفي الذى يخطط ببرايعته ويؤلف بمقالاته تاريخاً يستوجب الحديث عنه أو الإشارة إليه ، حتى تخطت الصحافة في الشرق الأدنى هذا الدور الأول ، ونزل إلى ميدانها صحفيون نافسوا في ميدان العلم والأدب والسياسة ، وكان ذلك في النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث تساوت تركيا والشام ومصر في هذا النشاط ، يدفعها جميعا اضطراب الفكر الذى شمل تلك البلاد ، فنشأت الصحافة الشعبية أو صحافة الأفراد ، وسجلت بوجودها تاريخها الأصيل ، وأشاعت بلفتاتها ومجادلاتها تيارات فكرية تملت الشرق من حال إلى حال ، وخلقت بوجودها شخصيات صحفية نحن اليوم بصدد بعضها ، نؤرخ لهذه الشخصيات كعنوان لغيرها من الشخصيات الصحفية التى تعجز صفحات الكتاب عن استيعابها جميعا .

محمد علي الكبير

لعل كثيرين يدهشون لاحتساب محمد علي الكبير رأس الدولة المصرية الحاضرة بين صحفيي الشرق ، وهو الأمير الذي تغلب على تاريخه صفات أخرى ، وقبلها تذكر كتب التاريخ له لفته صحفية . أو تشير من بعيد إلى موقف يصله بالصحافة وتاريخها . ومؤرخو مصر معذورون إن شغلوا بمحمد علي فاتحاً أو منظمًا وأهملوا سياسته الصحفية ، فعهد الشرق بالصحافة قريب ، وحذب أمير من ولاته على الصحافة أمر غريب ، فكيف يسيغ المؤرخون أن يحسب على الصحافة رأس أمراء الشرق ، وهم المرقنون أن حكامه خصوم بطبعهم للصحافة وخاصة في ذلك العهد الذي اعتبر فيه النشر بصورة المتباينة خطراً يؤذي النظام ، ويسىء إلى الأخلاق ؟

ومحمد علي صحفي ، بل أجمل ما في تاريخه هذا الجانب من نشاطه الذي أهمله المؤرخون رعاية لمكانة الأمير الذي قد يهون انتسابه للصحافة من مكانته بين أقرانه من الأمراء ، وليس غريباً على محمد علي أن يشغل جزءاً من حياته في إنشاء الصحافة ورعايتها ، فإن نظمه التي أعدها لمصر استوجبت إصدار الصحف ، وهو يرعى هذا النشاط باليقظة والعناية التي بذلها لكل نواحي التجديد في مصر . بل كان إصدار الصحف وسيلته لمعرفة آثار هذه النظم عند الأهالي ، ورسائله إلى موظفيه من الحكام والمأمورين « فأراد ولي النعم أن تنقح الأخبار التي ترد إلى الديوان المذكور — يقصد ديوان الجرنال — ويقتخب منها ما هو مفيد ، وتنشر عموماً مع بعض الأمور التي ترد من مجلس المذاكرة السامي ، والأمور المنظورة في ديوان الخديوى ، والأخبار التي تأتي من أقطار الحجاز والسودان ومن بعض جهات أخرى وذلك ليكون هذا كله

سببا للحصول على الفوائد الحسنة التي هي مقصود ولي النعم ، وتقويماً
لممارسة المسأورين الفخام وباقي الحكام الكرام المقلدين تدبير الأمور
والمصالح ،^(١).

ثم اختص الباشا قلعة بمطبعة تقوم على طبع صحيفة يقال لها « جرنال
الخدو » ، ولي إدارتها رجلا بؤثره ، وجعل من إدارته واسطة بينه وبين مختلف
الإدارات ومراكز الحكومة في الأقاليم ، وعين لديوان الجرنال في القاهرة
نخبة من الكتّاب الذين يجيدون اللغتين العربية والتركية ، ووظف بعض عماله
في الریف لجمع أخبار الدولة ، على أن يتولى « محمود أفندي جرنال ناظرى »
أى ناظر الجرنال جمع هذه الأخبار وصياغتها في إدارته ، وتقديمها لأعتاب
ولى النعم فى أوقات ضربها له وألزمه برعايتها^(٢).

ويشاء ولى النعم أن تنتظم أخبار الجرنال حتى لا تضطرب « المصلحة »
والمصلحة هنا مصلحة الشعب ، فالجرانيل عند الباشا وسيلة لفهم شئون الناس
وتقدير معاملة موظفيه « للعباد » وهو يأمر بأن يترك القائمون بلسخ الأخبار
والإشراف على الجرنال « برزخ الاستراحة » حتى لا يبقى « عباد الله فى التعب »
أو تغيب عنه مصالحهم .

وولى النعم لا يدعو إلى انتظام الجرنال فى رفق ، ولا يأخذ موظفيه فى
أمره بهوادة ، بل هو ينذر بالقانون ، والقانون يعاقب المهمل فى الجرنال
« بالضرب ٣٠٠ نبوت » .

نعم ثلاثمائة نبوت . . . وهو فيما نعتد عقاب لم ينفذ ، أو لعله نفذ مرة
واحدة على سبيل التذكرة والعبرة ، فإن ثلاثمائة نبوت لون من العقاب الموت
أهون منه على أى حال . . .

(١) راجع افتتاحية العدد الاول من جريدة الوقائع المصرية فى ٢٥ جمادى الاول

سنة ١٢٤٤ هـ .

(٢) محفوظات طابدين : دفتر رقم ٥٣٠ مكية تركى وثيقة رقم ٢ فى ٣ رمضان ١٢٤٣ هـ

من الجناح العالى إلى محمود أفندى ،

وقد يبدو من هذا العرض لماهية « ديوان الجرنال » أنه كان وقتاً على الوالى دون حكومته ، وأنه قمين بأن يكون تقريراً خاصاً لا يتصل بالصحافة أو يمت إليها بسبب ، بيد أن هذا الجرنال كان يطبع يومياً من مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمناً الأخبار الرسمية وغيرها ، وبعض قصص من ألف ليلة وليلة ، وكان يرسل إلى رجالات الدولة ومأموريها الذين يعينهم أن يقفوا على أحوال البلاد بشرها وخيرها ؛ وقد أمر بإذاعة بعض القصص فيه حتى يحجب قراءته إلى رجال دولته ^(١) .

وليس في هذه المقدمة الصحفية ما يغرى باعتبار محمد على صحفياً أو يزيده عن نظرائه من الولاة شأناً في هذا الباب ، غير أن محمد على يخطو خطوة أخرى فلا يقنع بجرنال الحديوى ، فهو يريد صحيفة كالصحف التي يتلقاها من أوروبا ، والتي كانت تقرأ له ويعجب بما فيها ، وكان حفيها بها حريصاً عليها حتى إنه كتب إلى بغوص بك يحذره أن يهمل إرسال تلك الصحف إليه وينذره إن أهمل بعقوبة لا تنفع معها تعلقة أو اعتذار ^(٢) ، وهو يريد صحيفة مماثلة لتلك الصحف تتسع لجميع أغراضه ، فأنشأ « الوقائع المصرية » في ٣ ديسمبر ١٨٢٨ ، ثم هيأ لها خطة الذيرع والانتشار على نهج يحقق آماله فيها ورجاءه منها ، فأمر بتوزيعها على كبار رجال دولته وزوجاته والعلماء ، ثم طلاب العلم الذين كان لهم عنده مكانة ممتازة ، فقد عني بهم الوالى ، يهيئهم للحكم ويعددهم لأعبائه ، لذلك كان توزيع الوقائع عليهم ضرورة تملأها التنشئة التي رغب فيها الباشا ، يريد أن يعلموا من أمر النظام الجديد أكثر مما كان يريد أن يعلمه غيرهم من فئات الناس .

(١) ذكر تفصيلاً لصورة هذا الجرنال وهيئته F. Bonola في كتابه :

Una Visita a Mohamed Ali nel 1822 La Prima Stamperia et il Primo Giornale. Revue Internationale d'Egypte II no Octobre 1905

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٦٦ دقة رقم ٣٩ مكية تركي في ١٤ شوال

سنة ١٢٤٤ هـ .

ثم يأمر محمد علي بأن يشترك فيها الموظفون ، فإذا أحس أن بعضهم يتبرم بهذا التكليف أمر بأن يقصر اشتراكها على كبار الموظفين ، ويباح لغيرهم حق الاشتراك فيها إذا شاموا ، فالوقائع في اعتباره « شيء رقيق لطيف وليس هو بالشئ الذي يعطى بالإكراه ، بل إنما يعطى بتدال »^(١) ولم يعف ضباطه من قراءتها ، وأمر بأن تلاحقهم الوقائع في أعماق السودان ، وترسل إليهم في جزيرة العرب أو الشام حتى حدود الأناضول ، ويبحث إليهم بها في كريت ثم يذكروا مبعوثيه في أوروبا ، فيأمر بأن تنقل إليهم مع بريده إلى باريس أو لندن أو روما أو فيينا أو إلى غيرها من بلاد الدنيا ، حيث يكون المصريون طلابا للعلم ، أو في مهمة من مهمات الدولة « الكثار » فكان يخص بعض الهجاة لحمل الوقائع إلى السويس ، ومن السويس تنقل في البحر إلى جدة ، ومحافظ جدة يرسلها إلى أصحابها حيث كانوا ، أما أعداد السودان فتسلم إلى وكيل ناظر سنار « المقيم في القاهرة » وهو يسلمها إلى الهجاة الذين يأتون من سنار بين وقت وآخر ، وفي الشام يقوم « سعاة البريد بتوزيعها في الطريق من غزة إلى طرابلس ، وقد كلف « أمير اللواء عثمان بك » بتوزيعها على أصحابها في كريت^(٢) .

وظيفة الباشا هنا تذكرنا بمديرى الصحف الذين وكل إليهم أمر الإدارة والتوزيع !! .

فإذا وثق الوالى من توزيع الوقائع بحيث تصبح مقروءة في جميع البيئات المصرية راقب بنفسه صلاحية النشر فيها ، وأخذ يشير برأيه في أصعب مسائلها وأهونها ، يعنيه أن تؤدي مطبعة الصحيفة وظيفتها أداء حسنا ، يشير إلى ذلك

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٥٨ دفتر رقم ٣٢ مئة تركى في ١٠ ذى القعدة ١٢٤٤ هـ من المعبية إلى حضرة الحاج إبراهيم قندى :

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٧٦ أصلية في ٢٩ صفر سنة ١٢٤٩ هـ دفتر ٢١٦ مسلسل

رقم ٧٨٧ ديوان خديوى تركى -

ما كتبه إلى سامى بك مأمور الوقائع يستفهم عن أحد العمال الذى أثارت كفايته الشكوك ، أنت الآن موجود بمصر فاستدع العامل المذكور واختبره جيداً هل يستطيع أن يقوم بصنع الحروف كما يجب ؟ ،^(١) فهو يريد أن يكون عماله الأصغرون على كفاية ، فلا تضايقه الأخطاء المطبعية ، وخاصة تلك الأخطاء التى يترتب عليها اضطراب فى الموضوع ، وقد كتب فى ذلك إلى مختار بك يخبره بأنه طلب مسودات قائمة الضباط المطبوعة فى الوقائع ، وعانها فوجدها غير مطابقة للمطبوع ، وأصدر أمراً بأن يستدعى ناظر الوقائع ويستجوب فى سبب تغيير بعض الأرقام دون إستئذانه ، ثم يذكر فى هامش كتابه ، بأنه إذا تبادر إلى الخاطر بأن مثل هذه الأخطاء توجد فى كل الجرائد فهناك ملحوظة هامة ، وهى أن الوقائع المصرية جريدة حكومية ، وأن مركزها خطير ، لذلك يجب الاهتمام فى صحة مندرجاتها ، وعدم نشر أى شىء فيها قبل الوثوق من صحته ، وقبل السؤال عنه وفهمه جيداً ،^(٢) .

وطبيعى أن الجهد الذى بذله الباشا وحكومته فى إصدار الصحيفة وتمكينها من الزواج كانت تدفع إليه أغراض كثيرة ، فالجناب العالى كان يرسل إليها أوامره لتنشر فيها ، ويريد أن تكون مكاناً خصباً لمدحه والثناء عليه ، كما كان يوعز بالمقالات التى من شأنها أن تعلن جهداً من جهوده المتبانية ، وتبين فضلاً من أفضاله والمواتية ، وكانت الأخبار الهامة التى ترسل للطبع يصدر معها أمر عال ، بأن تسكتبوا مقالا شائقا فى الوقائع فى هذا الشأن ،^(٣) وكان يهم الباشا أن يرى الجمهور فى هذه المقالة صورة للحكومة العادلة ، وكانت أمثال هذه المقالات التى يضعها أحد رجاله أو عماله سواء كانوا من المصريين أو الفرنجة تلقى من

(١) محفوظات عابدين أمر عال رقم ٣٦٢ فى ٢٢ جادى الاولى سنة ١٢٥٠ هـ دفتر رقم ٥٦ مية تركى .

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٣٢١ فى ٢٧ جادى الاخرة سنة ١٢٥٠ هـ

(٣) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٤٥٨ فى ٩ صفر ١٢٤٥ هـ دفتر رقم ٣٢ مية تركى

لدنه عناية خاصة ، فيطلع عليها ويدلى فيها برأى قبل نشرها فى الوقائع ، ويبين لنا كتاب المعية إلى بغوص بك مدى التفات الباشا إلى مثل هذا الموضوع حيث قالت فى كتابها « وصلت لنا مقدمة الوقائع — أى الافتتاحية — التى نظمها الخواجه ميمو ، فاطلع عليها جناب ولى النعم فحازت الاستحسان عنده وصدرت الإرادة السنية بأن تنشر فيها »^(١) وفى خطاب آخر من المعية إلى مختار بك ما يوضح لنا أن هذه الافتتاحيات كانت عرضة للتغيير والتبديل ، فقد « اطلع الجناب العالى على المسودة التى وضعها المسيو لوبر من أعضاء شورى المدارس لطبعها فى الوقائع . إننا وإن كنا عدلنا فيها بالحج والإضافة بدون تغيير فى المعنى إلا أننا رأينا أن الأمر يتطلب حتماً إبدال صيغتها تطبيقاً لأصول الإنشاء »^(٢) .

والمعية هنا لا تشير برأى ، وإنما تتلقى الملاحظات من ولى النعم لتبليغها . وليست الافتتاحية وحدها التى كانت تلقى الرعاية وتختص بالعناية ، بل إن الحوادث المهمة التى كانت تنشر فى الوقائع كان الباشا يحددها ويرسلها إلى ديوان المطبعة لتنشر فى الجريدة الرسمية ، فقد تلقى حبيب افندى كتاباً جاء فيه « كتبت اليوم الحوادث المراد طبعها . ونشرها فى الوقائع ، وأرسلناها ضمن كتابنا هذا لمقامكم الكريم ، وإن من مقتضى أمر ولى النعم أن تكلفوا بترجمتها الخواجه نصرى وكيل التحرير »^(٣) وكان الباشا يسوءه جداً نشر الأخبار التافهة ، أو الحوادث التى لا تليق بكرامتها ، وقد كتب إلى مأمور الوقائع مراراً يلفت نظره إلى هذه « الأمور الجزئية » ثم يعقب فى إحدى هذه الكتب على خبر سىء نشر فى الوقائع « لقد أخذنا العجب فى درج مثل

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٦٠ فى ١٩ محرم ١٢٤٩ هـ دفتر رقم ٥٣ معية سنية

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٦١٨ فى ٧ ربيع الأول سنة ١٢٥٢ هـ قسم الأوامر العلية .

(٣) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ فى ١٠ محرم ١٢٤٩ هـ دفتر رقم ٥٠ ديوان خديوى تركى .

هذه الحوادث القبيحة ، فإذا علمتم ذلك فعليكم من الآن فصاعداً أن تدرجوا الحوادث اللاتقة بالنشر ، وتتجنبوا نشر ما لا يليق نشره ، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام ، لأنه من مقتضى ذمة خدمتكم ومطلوبى أن تكونوا بعدئذ على انتباه وبصيرة ،^(١) وكان المفهوم أن أوامر الأمير ستلقى أذناً مصغية ، غير أن الجريدة نشرت خبراً جاءها من الجيش عن حادث بين بكباشى الأورطة بدمياط وبين البولك أمين ، فأرسل الباشا يعنف ناظر الجهادية ويأخذ عليه أنه أذن بنشر أخبار لم يكن يليق بكرامة الوقائع أن تنشر فيها ، ثم يطلب معاقبة الذين عملوا على نشر هذا الخبر^(٢).

أدى نشر الأخبار التافهة في الصحيفة إلى التفات محمد على إليها التفاتاً خاصاً ، فرأيناه حريصاً أشد الحرص على أن يطلع بنفسه على كل موضوعات الوقائع التى تعد للنشر ، حتى يأمن عثرة المحرر ويحقق للجريدة كرامتها ، وقد تلقى ماورها خطاباً من الجناب العالى يفسر لنا هذا كله ، اطلعت على خطابكم الذى تقولون فيه إنكم استقلتم ما أرسلناه لكم لتنشروه في الوقائع عن توجيه رتبة أمير اللواء ، على إبراهيم بك ، وأنكم أعدتموه لنا لنصححه ونزيد فيه ، إنك يا هذا رجل مبتل بالثرثرة ، ولكن ليس لزاماً علينا أن نكثر من الكلام كما تكثره أنت ، فانشر ما أرسلناه لك من قبل كما هو ، وإذا لزم من الآن فصاعداً نشر شئ من الوقائع فأرسله لنا أولاً لنطلع عليه ، حيث لا يجوز نشره من غير أن نراه ،^(٣) وقد جرت العادة منذ ذلك الوقت على أن يرفع ناظر الوقائع مسودات الجريدة قبل الطبع ليقرأها الوالى ويقضى فيها برأى ، يؤكد هذا خطاب ثان أرسل من المعية السنية إلى ماورالوقائع ينبئه فيه بأنه عرض

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ فى ١٤ جادى الآخرة ١٢٤٨ هـ دفتر ٤٩ معية سنية .

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٤٢ فى ٢٦ ربيع الثانى ١٢٤٩ هـ دفتر ٤٩ معية سنية

(٣) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٤٣ فى ١٢ جادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر رقم ٦٦ معية تركى .

« على الأعتاب العالية المسودة التي أرسلتموها ضمن كتابكم الشريف لدرجها في الوقائع ، وقد أجرينا فيها بعض التعديلات وأعدناها لكم لطبعها ، وبعثنا لكم بالمسودة التي وضعناها ضمن خطابنا هذا ، والاهتمام بهذا الأمر من مقتضى الإرادة السنية ، ^(١) .

وظيفة الباشا هنا تذكرنا برؤساء التحرير الذين وكل اليهم أمر الخبر والمقال ١١ .

وقد دلتنا هذه الوثائق التي أشرنا إلى طرف منها على أن عناية محمد علي بالوقائع المصرية لم تكن عناية سطحية تتفق ومتاعب الوالى الذى كانت تشغله الحياة العامة بمسائل أخطر كثيراً من الجريدة الرسمية ، ولكن الباشا عارف بقدر الصحافة وأثرها في حياة الشعوب ، لذلك وسعت مشاغله أمور الجريدة التي كانت تصدر في بعض أيامه أكثر من مرة في الأسبوع ، وهو وإن يكن بعيداً عن تحرير الصحيفة بالمعنى المفهوم أو إنشاء مقالاتها كما يصنع المحررون ، أو جمع أخبارها كما يفعل المخبرون ، إلا أنه يرى ذلك كله بذهنه الواسع ولقائمه الرائعة ويراجع بنفسه الأخبار ، ويشير بالمقالات ؛ ويحذف ما يجيئه منها إذا لم يتفق ذلك مع كرامة الصحيفة أو أصول الفن الصحفي ، وهو لا يخل عليها بمال أو رجال ، ويأمر بأن يلى أمر طبعها عمال مهرة لا تشوب كفايتهم شائبة ، ثم يعين لتحريرها والإشراف عليها خيرة رجاله ، ومن بينهم مختار بك مدير المدارس وبخوص بك ثقته في المسائل العليا ، وبعض كبار المعلمين الفرنجة ، ويضع لنواحي التحرير العربية رفاعة رافع الطهطاوى أستاذ المدرسة الصحفية في عهده وعهد خلفائه الأقربين ، وهو عالم له فضله وأثره في النهضة اللغوية والترجمة في القرن التاسع عشر .

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ في ١٩ جمادى الآخرة ١٢٥١ هـ دفتر رقم ٦٦

معية تركى .

فحمد على إذن في هذه الناحية ليس كغيره من ولادة عصره الذين شغفوا
بالصحافة الرسمية على سبيل التقليد أو استكمال مظهر من مظاهر السلطان ،
لذلك كانت الوقائع في عهده أمراً ضرورياً وشيئاً يتصل بوظيفة الحكم ،
ولا يمكن أن تستغنى عنه الدولة ، ويكفيه أن يحتفظ لنفسه في تاريخ الصحافة
الشرقية بهذا الجهد المتصل للبقاء على أقدم صحيفة عرفها الشرق ، وضرب
المثل لغيره من الولاة والحكام ، والإعلان عن قدر الصحافة في حياة البلاد ،
حتى قلده كثيرون فسجلوا في صحافتهم تاريخ النشاط الشعبي والحكومي ،
وتركوا لنا بذلك موارد يرتادها الباحثون كلها أعوزتهم الحقائق التاريخية في
جداولها الأصلية .

وبعد فالصحافة في الشرق صاحبة جلالة منذ بعيد ، وآية ذلك هذا العرض
لسهم أمير أمراء الشرق في تاريخها العريض .

الخديو إسماعيل

مهما تختلف آراء المؤرخين في تقدير حكم الخديو إسماعيل لمصر فإن لدينا من الوثائق التي اكتشفت أخيراً ما ينزع منا الإعجاب بناحية كانت مستخفية في تاريخه ، فإذا إسماعيل أقدر رجال الحكم في النصف الثاني من القرن الماضي في الشرق والغرب ، أقدرهم على توظيف الصحافة في شئون الدولة، فهي تعاون وزير خارجيته إذا نزح إلى أوروبا ، وتسند وزير داخليته في مشا كل الحكم، وتعلن عن مصر في مصر والشرق ، وتؤيد بسلطانها دعائم سلطانه ؛ وتنافس مدارس في تعليم شعبه ، بل تسبق مدارس له إلى إعداد رآى عام حر لم يشهد له الشرق مثيلاً من قبل .

يقبل إسماعيل فإذا اتفاق قناة السويس الذي عقده سلفه يمحور على سلطان الدولة ، ويكلف خزانتها فوق احتمالها ، فيأبى الخضوع لهذا الاتفاق ، ويسافر رسوله نوبار باشا إلى أوروبا ، فيحارب شركة القنال بأسلوبها ، ويوظف الصحافة الباريسية وفي مقدمتها «الطان»^(١) في منازلة ألسنة الشركة من صحف وصحفيين ، وإذا فرنسا بأسرها تشغل بقضية مصر ، وإذا «جريدتنا» ، الطان كما كانت تسمى تحمل على خصومه وتعلن عن مصر أحسن إعلان ، تؤيدها صحف مرسلها من صحف الأقاليم ، ولا يعنيه بعد ذلك أن تتكلف خزائنه عشرات الألوف من الفرنكات ، فإن اسم مصر وحقوق مصر لا ينبغي

(١) كانت جريدة الطان Le Temps أعظم صحيفة فرنسية ، وقد اشترى إسماعيل بعض أسهمها باسم وزيره نوبار ، لذلك كانت هذه الصحيفة تقف إلى جانب مصر على عهد الخديو في جميع الأزمات التي مرت بها ، ثم وقفت إلى جانب الأرمن وناصرتهم في خصومتهم لتركيا وغيرها من بلاد الشرق الاسلامي .

أن يدخل في حسابها ألوف الفرنكات أو الجنيهات ، ثم يأمر الوالى ناظر خارجيته أن ينشئ في باريس مكتبا يسميه (مكتب الصحافة) تدوم خدمته ويكون وسيطاً بين الباشا وبين صحافة فرنسا ووكالات أنبائها ، ويمتد وساطته إلى صحف بلجيكا ، على أن يقوم الكونت زينينا في الاسكندرية بنفس هذا العمل ، إذا احتاج ولى النعم إلى صحف في إيطاليا أو في غيرها من بلدان قلب أوروبا .

كان هذا أول نشاط صحفى لإسماعيل ، بدأ في الخارج ولم تشعر به مصر ، لأن قضية القناة جابهته ولما يمض في أريكته الخديوية شهورا ، فإذا استقر أمره بعد سنتين التفت إلى صحيفته الرسمية ، الوقائع المصرية التى « سطت » عليها أيدى الليالى ومزقت صحفها كل ممزق في الزمن الخالى ، فبقيت نحو سنتين معتقلة اللسان تلتظر فرجا باعتدال الزمان ، كما يقول خيرى بك مكتوبجى الحضرة الخديوية وهو يصور حياة الوقائع في نهاية عهد سعيد^(١) ، فكتب الخديو إلى ناظر ماليته يقول « إن من المسلم به أن للجرائد منافع ومحسنات عند الأهالى ولدى الحكومة ، ولذلك فأننى أرغب في إدخال جريدة الوقائع المصرية في عداد الجرائد المعتبرة »^(٢) وتم له ما أراد فإذا للوقائع « منافع ومحسنات » عند المصريين الذين قرءوا صحيفة جالت في ميدان العلوم والفنون وزخرت بأخبار الدنيا من الصين إلى الأمريكتين ، وتمت « المنافع والمحسنات » للحكومة أيضا بما أخذته الوقائع على عاتقها من التعبير عن سياسة الدولة الداخلية والخارجية ، ومكافحة خصومها ورد أعدائها وتفنيد دعاوهم .

والخديو الذكى يقدر موظفى جريدته فلا يبخل عليهم بمال بل هو يبذل لهم في سخاء ، تم يختار لقلم الوقائع مكانا يليق بصحيفته ، ويذهب الى أكثر من

(١) راجع جريدة الوقائع المصرية في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٥

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٦٤ دفتر ١١٨١ وأمر للهاية في ٣ رجب عام ١٢٨٢ هـ

هذا فيأمر للبحررين « بالبن والفحم لزوم القهوة والماء العذب لزوم المشروب »^(١) ! ! وحسب كاتب الخبر والمقال أن يهفو مزاجه ويعتدل ، ويلبيه الساقى إذا ثقل عليه القيظ أو خمد فيه الدهن

ولما كانت للجرائد « منافع ومحسنات » فقد أنشأ الخديو صحيفة لشئون الطب في ١٨٦٥ سماها « يعسوب الطب » تشرف عليها الحكومة وتنشرها مطابعتها ، على أن تقدم لمطالعيها من رياض الطب وأزهاره ما يفيهم عن المرجوع إلى مطولات الكتب وشروحها ، أو المجلات الطبية الأجنبية وفصولها الطوال .

وكانت موضوعاتها طريفة خفيفة يلذ للقارىء العادى أن يطالعها بنفس الرغبة التي يستقبلها بها المثقفون والمتعلون . فلم تعرض الموضوعات الصحية الجافة ، بل عاجلت الموضوعات العلمية العميقة في أسلوب يدركه أى قارىء ، وقد ساهم في تحريرها الأطباء المصريون والفرنجة ومنح الشيخ إبراهيم الدسوقي الأديب المصرى المعروف وقتئذ علاوة على راتبه مائة وخمسين قرشاً مقابل قيامه بتصحيح لغة المترجم من نصول الأطباء الأجانب^(٢) .

ثم أصدر ولى النعم صحيفة لضباطه وجنوده سماها (الجريدة العسكرية المصرية) وهى كما تقول افتتاحيتها « لاتختص باشتغال على بنود تتعلق بأنواع العلوم والفنون العسكرية المتحصلة عند المال المتأخرين والأمم المعاصرين فقط ، بل يندرج فيها أيضاً فوائد جلية وإرشادات جميلة بما لا بد منه لكل إنسان متمدن ، ولا بأس به لكل حاذق متفنن ، من المعارف النافعة ، والفنون المتنوعة ، مع ما ينضم لذلك من تحلية هذه المجموعة بإدراج يوميات محصل

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٠٩ فى ٩ جادى الأولى ١٢٨٥ هـ قدر ٧٤ ص ١٠٧

(٢) أمر عال إلى مجلس الصحة فى ٢٤ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ ص ٢١٠ دتر ١٩١٣ عربى

ما يحصل في سائر أقطار الدنيا من الحوادث الكبيرة البوليائية أى السياسية والوقائع الشهيرة العسكرية» (١) .

ثم أصدر الخديو صحيفة مماثلة بعد تسع سنوات سماها (جريدة أركان حرب الجيش المصرى) لتزامل الجريدة العسكرية ، ولكنها تخصصت ببحث الموضوعات التى تهم كبار الضباط وهيئة أركان حرب ، فكانت أكثر تخصصاً للجيش ونظمه ومبتكراته وآثاره .

وفى خلال ذلك يأمر سموه بأن يكون لتلاميذ المدارس صحيفة يسميها (روضة المدارس) يضع على رأسها على مبارك باشا ، ويولى أمر تحريرها رفاعة رافع الطهطاوى أستاذ الصحافة والصحفيين فى الشرق العربى فى القرن التاسع عشر ، يعاونه ألمع أسماء العصر من الأدباء والمعلمين ، فكانت ميداناً رحيباً من ميادين الأدب والاجتماع والتاريخ والفلك والرياضيات ، بحيث تكون فيها كما تقول هى «الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعاينها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنخرط فى سلك مستحسن الأساليب . . . فإن المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة ، وتستضىء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة » (٢) .

وإذن فنحن أمام شخصية تذكرنا بهذه الشخصيات الصحفية الضخمة

(١) من مقدمة الجريدة العسكرية فى غرة جمادى الثانية ١٢٨٢ هـ (٢٢ سبتمبر ١٨٦٥) ويلاحظ أن (الجريدة العسكرية) لم يقتصر فى تحريرها على الضباط والجنود بل سمحت لكتبة من « أرباب المعارف الخصوصية وأرباب المناصب العلمية » بنشر ما يروق لهم من الموضوعات التى يستفيد منها القراء سواء كانوا عسكريين أو مدنيين .

(٢) راجع العدد الأول من روضة المدارس .

التي تنشئ مؤسسات النشر، فتعاون على نهضة الفكر وتهذيب الرأي ومعالجة الجهل والانتشار عليه في كل ميدان .

وهذا بعض نشاط الخديو الصحفي الرسمي ، غير أن لإسماعيل مطالب للملكة ورسالة يريد أن يؤديها لعرشه وأخلافه من بعده ، وأمان يجرعها لسلطانه ليتحقق بها استملاؤه ، وهو لا يريد حرباً مع السلطان ينتزع بها هذا كله ولا يضمن بقاءه ، فليجرب الدعاية عند الباب العالي ، فلعل دعائه وماله يستطيعون انتزاع فرمانات الاستقلال من غير دماء ، ورسم الخديو الذكي سياسته ونفذها ببذخ ، أعان صحفاً وخلق صحفاً ، وأبقى على كثير من الصحف والصحفيين .

كان عمال دعايته في الأستانة ثلاثة ، أبراهام بك وعلى بك الكريدي وأحمد فارس الشدياق صاحب (الجوائب) أكبر وأخطر صحف الشرق إذ ذاك ، وللأول الصدارة في الدعوة والقيام بها ، واليه وكل الخديو شراء الرجال في بلدن ، وشراء الرجال في الصحف ، بل شراء الصحف نفسها ، والصحف الأجنبية خاصة التي يحسب لها رجال الخليفة ألف حساب ، أما الشدياق فكان ولاؤه لإسماعيل يقوم على شيء من الود المتصل بين زعيم الصحافة الشرقية وكبير ولاية السلطان ، وقد امتحنت صداقتهما يوم عزل إسماعيل فأبى أن يسود صحيفته بكلمة سوء عنه ، بل دافع عن سياسته ورسائله ، ولقيت صحيفته عقابها على هذا الوفاء فغطت عدة شهور ، وهو لم يدع له فحسب ، بل يكتب إليه بأنباء المايين ، واتجاهات ذوى الساطة وأخبار الشرق ، مستقاة من أصدق المصادر ، ليعرف خديو مصر كيف يحاربه خصومه ، وأين هو من تيارات السياسة العليا في دولة السلطان . والداعيان الآخران يتناوبان الكتابة للخديو ، ويفصلان له جهد صحافة القسطنطينية في الدفاع عن سياسته في مصر ، ويتلقيان منه المقالات والأخبار لئلا يشرها في تلك الصحف ، وكان إسماعيل حفيماً بأصحاب ومحرري هذه الصحف حفاوة

يندر أن يكون لها مثيل عند الملوك والحكام ، فقد زار مصر (ادكاروينكر) محرر « الليفنت هيرالد Levant Herald » ، في القسطنطينية ، فإذا خديو مصر يعطيه كتاباً خاصاً لمحافظة الاسماعيلية يذكر له فيه أن « مسيو إدكار وينكر محرر جرنال اللفانت هيرالد ناقل هذه متوجه لطرفكم من السويس في يوم الجمعة الآتى . فني آن وصوله لطرفكم ، بعد مقابلته بالتلطف والاحترام وإنزاله في أوده باللوكانده لايقه لميته بها وتفرجه على المحلات والجهات التي يرغب التفرج عليها مع المراعية التامة وحسن الالتفات لجناحه مدة إقامته بطرفكم . وقد تحرر للسكة الحديد تعين وابور مخصوص لركوبه عند قيامه من طرفكم ، ^(١) .

ولا يقف ولى النعم إثارة للصحف والصحفيين عند هذا الحد ، بل يستقبل غير محرر الليفانت هيرالد عشرات وعشرات ، ينزلون مصر ، فإذا فندق شبت « أى شبرد » يستقبلهم كما يستقبل الملوك على نفقة الخديو الخاصة ، وتقوم السلطات بخدمتهم كضيوف لولى النعم . فهذا التكريم الذى يقدمه الخديو للصحفيين ليس مرجعه صداقة خاصة ، فحسب ، بل هو تكريم يمنحه اسماعيل ليكسب صحافة هؤلاء الرجال ، سواء كانت صحفا فى الآستانة أو فى أوروبا .

وقد كان إسماعيل معنياً أشد العناية بصحفيي الآستانة ، فقد وافق سموه على إعانة قدرها ثمانمائة جنيه لمدة خمس سنوات لصاحب « الليفانت هيرالد » ، على أن يقوم صاحب هذه الجريدة بإذاعة أخبار مصر والدعاية للوالى والتوسط لمشروعاته عند أصحاب الشأن من الأتراك والأجنيين ، ولم تكن هناك صحيفة فى تركيا إلا ونالت من صلات الأمير أو عطفه الشيء الكثير ، ثم عطف على صحف الشام وهى صحف يعنيه أن يمدّها بماله ، لأنها تقرأ

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ١٩٠ ص ٥٦ دفتر ١٩٤٩ غير رسمى .

في مصر أيضاً ، فنحنها الإعانات والصلات واشترك في أكثرها ، وكانت صحيفتنا « الجنان وحديقة الأخبار » ، في مقدمة صحف الشام التي نالت تأييد الخديو وعطفه .

ثم كان لشركتي « هافاس وروتر » شأن في سياسة إسماعيل الصحفية ، ولم يغفلهما الخديو أو يقل من شأنهما ، فرتب للشركة الأولى ألف ليرة في كل عام ، ومنح الثانية ستين ألف فرنك كل سنة ، وكان مندوبهما في مصر يتقاضى ألف فرنك كل شهر ، ولم تعط هذه المنح اعتباطاً ، فكثيراً ما حملت عليه صحف لوندرة بمقالات من شأنها أن تسيء إلى سمعة مالية الحكومة المصرية ، وكانت قصاصات هذه الصحف تقدم للخديو ليرى رأيه فيها فيطلب إسماعيل الميسو شيلان مندوب شركتي « روتر وهافاس » ويسله المقالات ليرد على حملات الصحف الإنجليزية (١)

(١) إن السياسة التي اتبعتها الخديو إسماعيل مع الصحافة والصحفيين الأجانب تعتبر في ذمة التاريخ شيئاً جديداً حقاً على أي حاكم شرقي ، ويعتبر إسماعيل أول مؤسس لنظم الدعاية في الشرق ، وأكبر الظن أن الرجوع إلى ما صنعه إسماعيل واجب محتوم على كل حكومة مصرية تريد أن تتعرف الطرق وتنحس الوسائل ، فلا تزال وسائله إلى يومنا مرجعاً وحجة لمن يريد أن ينجح الطريق المستقيمة المنتجة . ونشير هنا إلى الوثائق والدوسيات التي راجعناها وصورنا منها جدي إسماعيل الصحفي عند الأجانب في مصر والخارج ، ليستعين بها من أراد التفصيل فيما أوجزناه من حوادث وبيانات .

وثائق في محفوظات عابدين التاريخية .

- ١ - محفظة ٤٩ معية تركي وثيقة رقم ٢١١ في ٢ جادى الثانية ١٢٨٩ هـ
- ٢ - وثيقة رقم ١٢٢ دفتر رقم ١٩٣٢ أوامر ص ٢٦
- ٣ - » » ١٩٠ ص ٥٦ دفتر ١٩٤٩ غير رسمي
- ٤ - » » ١٦ في ٣ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ
- ٥ - » » ٤٤٨ في ١٤ ذى القعدة ١٢٨٦ هـ محفظة ٤٦ معية تركي
- ٦ - » » ٤١٦ في ١٦ شوال سنة ١٢٩٠ هـ محفظة ٥٠ معية تركي
- ٧ - » » ٢٣٧ في ١١ رجب سنة ١٢٨٤ هـ محفظة ٤٢ معية تركي
- ٨ - » » ١٦٧ في ٢٣ جادى الآخرة محفظة ٥٤ معية تركي
- ٩ - » » ٢٥٥ في ١٧ رجب ١٢٩٢ هـ محفظة ٥٢ معية تركي .

ثم تختلف سياسة الخديو الصحفية في مصر ، فإذا هو عرضة لحملات بعض الصحف المصرية والفرنجية ، وفي مقدمتها « لوبروجريه إجبسيان Progres Egyptien » التي خاصمت الخديو وحكومته وحملت على سياسة اللين التي اختطها إزام تركيا ، وطالبت باستقلال مصر استقلالاً تاماً يبعدها عن مثل القسطنطينية وطرائقها في الحياة ، كما دافعت عن حريات المصريين ، والفلاحين منهم خاصة ^(١) .

وقد كان الجريدة لوبروجريه إجبسيان مثيلات في خصومة الخديو وحكومته لا يحتمل ذكرها المقام ، وقد استطاع الأمير أن يدل من سياسة بعضها ونذكر له في ذلك مثالين ، فقد كانت جريدة « L'Egypte » أشد صحف مصر خصومة لسياسة الخديو ، حتى أن محرر (الوقائع) جعل من خطتها الرد على مقترحات ليجيت ^(٢) ، بيد أن إسماعيل أجرى مع ناشرها المسيو (أنطون مورييس) اتفاقاً لمدة خمس سنوات تطع فيه الجريدة على ذمة

-
- ١٠ - وثيقة رقم ٦٦ دفتر ٥٣٩ معية تركي من ٩٠ في ١٣ ربيع الأول ١٢٨٢ هـ
 ١١ - « » ٢٦ دفتر ١٩٣٩ ص ٣٦ أمر إلى المالية .
 ١٢ - « » ٢١١ محفظة ٤٩ معية تركي في ٢ جمادى الثاني ١٢٨٩ هـ
 من شريف باشا إلى مهردار الخديوي
 ١٣ - « » ٢١٩ محفظة ٤٨ معية تركي في ٢٨ ربيع الثاني ١٢٨٨ هـ
 ١٤ - « » ٢٠١ محفظة ٤٥ معية تركي في ٦ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ
 من شريف باشا إلى الجناب العالي

دوسيات في محفوظات عابدين التاريخية

45/2, 45/1, 44/5, 44/2, 44/1 Dossiers

ولتسكلة ودراسة هذه الثانية من سياسة إسماعيل نعود إلى كتاب

G. Douin (Histoire du Règne du Khédive Ismail). T. II. P.P. 222.

240. 241. 324. 325. 436. 437.

(١) راجع Le progrès Egyptien في ١١ يوليو و ١٤ يوليو ١٨٦٩ و

٢ إبريل ١٨٧٠

(٢) راجع جريدة الوقائع في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٥

الحكومة المصرية مقابل ألف وثلاثمائة وستة عشر جنيتها وتسعة وستين قرشاً في السنة،^(١) ثم استحوذ الخديو على « Le Phare d'Alexandrie » التي هزأت بحكومته وعلى رأسها نوبار باشا، إذ زعمت أن « ليست عنده حاسة الرجل العمومي ولا يفهم في السياسة شيئاً » ومن ثم أصبحت لوفار صحيفة إسماعيل بعد أن عقد مع مديرها المحامي هايكليس « باشا فيما بعد » اتفاقاً لمدة خمس سنوات مقابل خمسين ألف فرنك في كل سنة^(٢).

أما سياسة إسماعيل الصحفية مع الجرائد الوطنية العربية فقد تبدلت حسب الظروف ، فهي صحف تنال برة وماله إذا التزمت جانب سياسته كما يؤيد ذلك تاريخ صحيفة « وادي النيل » ، لأبي السعود أفندي « وروضة الأخبار » ، لمحمد أنسي أفندي، وهي موضع سخطه واضطهاده إذا اشتدت في النقد أو أغلظت في التعليق، كما حدث في جرائد أبي نظارة وغيرها ، غير أنه شجعها بالرغم من صداقتها أو خصومتها كلها تأزمت الأمور بين مصر والدول الأجنبية .

وهكذا رأى الخديو إسماعيل في الصحافة سواء كانت في الشرق أو في الغرب ، وسواء كانت صحافة رسمية أو صحافة شعبية يصدرها مصريون ، رآها أداة من أدوات الحكم ووسيلة من وسائل السلطان ، وإن رجلا هذا حسه وهذا فضله لا يمكن أن تؤرخ الصحافة العربية دون أن يكون في مقدمة رجالها ، لأن له فيها تاريخاً ... وأي تاريخ ؟

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١٥ دفتر ١٩٤٨ أوامر ص ٤٨

(٢) محفوظات عابدين Dossier 45/11

رفاعة رافع الطهطاوى

اختصمت الثقافة الشرقية والغربية في صحفينا الطهطاوى ، فهو من الممتازين حفاظ القرآن ومن نوابغ تلاميذ القضاى والشيخ حسن العطار ، وخاصة الأخير منهما الذى احتفى به وفتح له بيته وتلقى عليه علوماً متباينة ، من أهمها التاريخ والأدب والجغرافيا ، حتى أصبح في نظر معاصريه والأديب الأريب العلامة الثبت الثقة الحجة في كل علم وفن الذى سابق جهابذة عصره في مضمار العلوم والفنون ، فلم ينتظم معه في سبطها أحد إلا كان واسطة العقد في جيد الزمن ، (١) .

ولد رفاعة الطهطاوى في مطلع القرن التاسع عشر ، وأمضى فترة شبابه في الأزهر ، ثم أوصى به أستاذه العطار ليكون إماماً للإرسالية التي بعث بها الوالى إلى باريس ، وهناك لم يقف حياته على الإمامة وحدها ، بل مضى مرتحلاً في الربوع الفرنسية رحلته المشهورة المسماة «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» وقد تعلم اللغة الفرنسية وأكثر من الاتصال ببعض الشخصيات العلمية ، وخاصة المسيو جومار والعالم البارون دوساسى ، وكانت إقامته في باريس اعدة سنوات عرف فيها كيف يترجم في جميع العلوم على اختلاف اصطلاحاتها فلما عاد إلى مصر عين مترجماً في مدرسة طرا ، وعرب في أثناء هذه الفترة جزءاً كبيراً من جغرافية ملطرون ، ثم أسس مدرسة الألسن ، وكانت أهم لغة تدرس فيها اللغة الفرنسية ، واتسع نشاطه في الترجمة خلال وجوده في هذه المدرسة ، ومن زملائه ومعاونيه فيها الشيخ أحمد عبد الرحيم

(١) السيد صالح مجدى بك - حلية الزمن في وصف مناقب خدام الوطن . مخطوط

الذى أصبح فيما بعد محرراً للوقائع المصرية، وقد تخرج على يدي رفاعة بك كثير من نوابغ التلاميذ الذين ولوا شئون التدريس في المدارس المصرية، وكان نشاط المترجم مضرب الأمثال، فهو يدرس لهم في مدرسة اللسان اللغة وفنون الأدب العالية^(١) حتى أصبحوا « في الإنشاءات نظماً ونثراً أطروقة مصرهم وتحفة عصرهم ».

لذلك كله كان الشيخ رفاعة أجدر المصريين بمنصب رئيس التحرير في جريدة « الوقائع المصرية »، الذى ألقى إليه رسمياً في سنة ١٢٥٧ هـ، وقد استطاع أن يفرض وجوده وشخصيته في تحرير الجريدة بالرغم من تكليف محمد علي لبعض الشخصيات الكبيرة كأرتين بك بالعمل في بعض شئونها، غير أن الطهطاوى تمكن من بزهم والتفوق عليهم، فبدأ جهده في أول الأمر بتنظيم الجريدة وتغيير اسمها، وينبغى أن نذكر أن الوقائع في عهدها الجديد بدأت تتمصر في كل شيء، في لغتها أولاً إذ أخذت اللغة العربية مكان الصدارة « حيث إن حضرة الشيخ رفاعى سيضع أصول الجريدة بحسب اللغة العربية »^(٢) ثم ترجمت إلى اللغة التركية في قالب حسن دون الإخلال بالأصل العربى، ثم استطاع صحفيينا أن ينتزع من ولى النعم محمد علي أمراً بأن يكلف ناظر مطبعة بولاق بمهمة الترجمة إلى التركية، وناظر مطبعة بولاق كان فيما

(١) لم يقتصر أدب الطهطاوى على النثر وحده بل كانت له بعض القصائد البديعة التي تحتفظ بها بطون الكتب، فمن شعره ما قاله في غربته يتذكر أمرته:

أبكي بعيني مهجتي لفراقهم وأودّ ألا تشعر العينان
وقال مادحاً إبراهيم باشا في حرب الشام وذاكرآ نجاح الأمير وتوفيق والده به :
في كفه سيفان سيف عناية والشهم إبراهيم سيف ثانى

وله في الغزل شعر رقيق منه :

تبدى الغرام وأهل المشق تسكتهم أو تدعيه سدى من ذا يسلمه
ما هكذا الحب يامن ليس يفهمه خل الغرام لعب دمه دمه

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٨٤ هـ في ٢٧ ذى القعدة ١٢٥٧ هـ دفتر ٢٠٧٣ هـ

مس ٨٢ و ٨٣ .

مضى المسيطر على حياة الجريدة تحريراً وإخراجاً، إذ كان مشرفاً على المطبعة والوقائع معاً، فتم انفصالهما وأخذت الصحيفة لها شخصيتها المستقلة، وأصبح في ذلك لون من التخصص تفرغت له الجريدة الرسمية .

ثم استطاع الطهطاوى بعد أن مكن للغة العربية ومكن لسلطانه في الوقائع أن يجعل الشئون المصرية أهم ما فيها، وكانت من قبل شيئاً مهملاً بالقياس إلى العناية بشئون الخارج، وأقره ولى النعم على ما ذهب إليه، وقال في وثيقة التنظيم « أما الحوادث الخارجية وإن كانت ستنشر في الجريدة إلا أن الأخبار المصرية ستكون المادة الأساسية » وأشاع رفاة التجديد في صحيفته، فكانت الأخبار الجديدة التي لم يتقدم عهدها لها المنزلة الأولى حتى لا تسقط قيم الأخبار كما كان الحال من قبل، ثم أجابت السلطات رغبات المحرر فأمرت الدواوين المهمة بموافاة إدارة المدارس بالأخبار، ولكن الطهطاوى يحتاط للأمر ويخاف تكاسل المسؤولين، فيقرر أنه إذا لم ترد هذه الحوادث في « الوقت المناسب يكلف على لبيب أفندى معاون ديوان المدارس المترجم العربى بالذهاب إلى الدواوين لإحضار الأخبار » وهذا نظام جديد مماثل تماماً لما تتبعه صحفنا المعاصرة، فالحياة الصحفية الصحيحة لا تستقيم بغير انتظام أخبارها، لذلك أعدت الصحافة في كل مكان عمالها لموافاتها بالحوادث والأخبار، فالوقائع تسبق الصحف في الشرق جميعاً في هذا التنظيم الإخبارى الحديث، ويعتبر من أهم الحوادث في تاريخها تعيين مخبر يوافيها بالأخبار كلما دعت الحاجة إلى ذلك .

وضع الشيخ رفاة أفندى نموذجاً للوقائع باسم « مظهر أخبار مصرية » وأقر الشورى هذا الاسم، غير أن محمد على لم يحزه، وبقيت الوقائع باسمها الفريد المعروفة به حتى الآن، ومضى رفاة أفندى يحرق الأصل العربى ويرتب الجريدة بصفة عامة، يعاونه في ذلك تلاميذه المترجمون من رجال مدرسة الألسن، وتولى حسين أفندى ناظر الوقائع بعد ذلك تصحيح الترجمة،

ومنذ عين الطهطاوى أصبح ناظر الوقائع فى المرتبة الثانية بالنسبة إلى محررها، وقد بذل رفاة جهده فى رعاية الصحيفة وأضاف فيها وعدلها تعديلا يليق بفهمه ويتصل بإدراكه، واستعان فى ذلك بفئة من المحررين كان من أهمهم أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين تليذ أستاذة العطار.

وكان لمكانة رفاة الطهطاوى أثر كبير فى تقدير الصحيفة واعتبارها واحترام لغة البلاد فيها، فإن مكان اللغة قد تبدل فأصبحت اللغة العربية فى الناحية اليمنى تصدر الجريدة فى صفحاتها الأربع، وأخذت التركية مكان اليسار، ومضت مبوبة تبويبا طيبا يسبق فيه الأهم المهم، على أن التطور الخطير حقاً الذى فرضه وجود الطهطاوى على رأسها ليس فى شكلها وتبويبها وإنما فى موضوعاتها التى انتقلت فجأة من توافه الأخبار والحوادث، والافتتاحيات الثقيلة المحشوة مديحاً وثناء للوالى بمهر وبغير مهر إلى موضوعات رئيسية لها خطرها لا فى الشرق وحده، بل فى أوروبا فى ذلك الوقت، فقد ساهمت الجريدة فى أمور السياسة الدولية، وناقش محررها البولوتيقة الداخلية والبولوتيقة الخارجية، وتحدث عن النظم الديمقراطية، والأوتوقراطية، وغير ذلك من شئون ما كان يمكن أن تعرفها الوقائع إلا فى رجل اختصمت فيه ثقافات الشرق والغرب.

ونحن نقتطف هنا على سبيل المثال جزءاً من مقال نشره الطهطاوى فى الوقائع^(١) بمناسبة الأزمة التى حدثت بين مصر ودول أوروبا وانتهت فى سنة ١٨٤٠ - ١٨٤١ بمعاهدة لوندرة، فقد حملت صحف الغرب على حكومة محمد على وسياسته الداخلية، وصورت أساليب حكمه أساليب منطوية على الظلم والاستبداد بالرعية، فكتب يدافع عن سياسة الوالى ويرد على مزاعم الأجانب، وقد بدأ رفاة رافع مقاله بالحديث عن بعض أمراء المسلمين فى سالف العصور ومثلهم فى الحياة، فكان الوليد المشهور يشغل

(١) الوقائع المصرية فى غرة ربيع آخر سنة ١٢٥٨ هـ

الناس بالدنيا ، والمصانع والصنائع وشق الأنهار وغرس الأشجار ، وكان عبد الملك يشغل الناس بالحديث عن « الأطعمة اللذيذة والثياب الرفيعة ، ويتغالون في المناكح والسراري ، ولما كان عمر بن عبد العزيز « كان الناس يتساءلون ! كم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تحتم ؟ وكم وردك كل ليلة ؟ وكم تصوم من الشهر ؟ » .

ذكر الكاتب هذا كله مقدمة لموضوعه ، فكان حديثه صدى لثقافته العربية ، ثم بدا أثر الثقافة الغربية فيه حين استطرد متحدثاً عن تساؤل الناس في زمنه عن أحوال الدول داخلية وخارجية من حيث إدارتها وسياستها ، وما فيها من التولية والعزل ، وهذا ما يسمى بالبوليتيقة ، والمتكلم في شأن ذاك يقال له بولوتيقي ، فما كان بين الدول والملل يقال له بوليتيقة خارجية ، وما كان في دولة واحدة مما يتعلق بانتظامها وتديرها يقال له بوليتيقة داخلية ، والغالب أن الغازات والوقائع هي التي تتكلم عن كل من البوليتيقة الداخلية والخارجية .

وهكذا يستمر المقال يدفع الناس إلى قراءة الصحف ، أى قراءة الوقائع المصرية التي لم يكن لها زميلة ، والتي لها وحدها — في عرف المحرر — حق التحدث في السياسة الداخلية أو الخارجية ، وليس هذا غريباً على عقلية شهدت الهزة الفرنسية في ثورة الفرنسيين سنة ١٨٣٠ التي قضت على حكم شارل العاشر وغيرت من الأوضاع السياسية هناك بفعل الصحف التي قادت بالرأى الحر أفكار الناس ووجهتهم حيث شاءت ، وحيث كانت خاتمة الملك المستبد الذي لا يعدل بين رعيته ، وهنا يمضي الكاتب مقارناً بين عقليتي الغرب والشرق ، واتهام الغربيين للشرقيين — وهو هنا يقصد محمداً علياً — بالاستبداد « ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الإسلام لا وجه له في الشرع ، وقل أن يقدم ملك إسلامي على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله »

ثم وقف نشاط رفاة الطهطاوى فى جميع النواحي وخاصة فى عهد عباس الأول ، فترك تحرير الوقائع ومدرسة الألسن ، إذ بعث به عباس إلى الخرطوم ليشرف على مدرستها ، فبقي هناك فترة اعتلت فيها صحته إلى أن أقبل عهد سعيد فاسترده من السودان وأعاد إليه نشاطه القديم ، فأقدم عليه إقدام المحروم ، ثم توفى الأمير سعيد ، وأقبل الخديو اسماعيل فتوج الطهطاوى نشاطه فى عهده ، وبلغ فيه غاية مجده ، وكان سهمه الصحنى هنا أبعد مدى وأبقى أثراً مما كان عليه الحال فى الوقائع المصرية التى حررها فترة لم يزد تحريره فيها على عدة أعداد من أعدادها الكثائر .

أنشأ إسماعيل فيما أنشأه من صحف مجلة أدبية سماها « روضة المدارس » وكان الغرض من إنشاء هذه الصحيفة النهضة باللغة العربية وإحياء الأدب العربى ونشر المعارف الحديثة ، وألقت أمورها إلى رفاة بك رافع الطهطاوى ناظر قلم الترجمة ، وتولى ابنه على بك فهمى رفاة رئاسة تحريرها ، وكان يحرر فيها طائفة من أعلام الفن والعلم والصحافة من الأجانب والمصريين وكان شعارها بيتين من الشعر :

تعلم العلم واقرأ تحز نغار النبوة
فالله قال ليحي خذ الكتاب بقوة

قام الطهطاوى على تحرير (روضة المدارس) بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولاً للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعاينها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة واضح الإشارة وألفاظ فصيحة غير حوشية ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ثم يقول : إن « المرام من ظهورها بهذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة وتستضىء بنورها أرباب العقول السليمة وأصحاب الطبائع المستقيمة » وهو يعد هذه الصحيفة للناس جميعاً وخاصة أبناءه طلاب المدارس « حتى تتسع دائرة معقولهم ومنقولهم » وهو يجعلها محلاً لثقة

تلاميذه ومكاناً يطلون من نوافذه « إذا علم كل منهم أن ما يظهر من أعماله المستحسنة، ويشهر من أشغاله الدائرة على الأقدرة والألسنة سيقيد بهذه الصحيفة، وكان الطهطاوى فى روضة المدارس مطلق التصرف فكانت صفحاتها تضم خير ما عرف عصر إسماعيل من أدب أو سياسة أو اجتماع . فكانت فيها حكايات فى تاريخ الأمم وآدابها وأخلاقيها كما حفلت بموضوعات فى الطب والزراعة والتجارة ، كما نشر الطهطاوى ملاحق بها تبحث فى موضوع طويل لا تحتمله المجلة وهى محدودة الصفحات ، وفتح محررها صدره لتلاميذ المدارس المجودين لينشروا ثمرات عقولهم شعراً ونثراً ، وروضة المدارس صاحبة الفضل فى تقديم « الشاب النجيب إسماعيل افندى صبرى » لجاهير العربية ، وهو الذى غدا فيما بعد إمام النهضة الشعرية وعلماً من أعلامها الكبار ، وجعل الطهطاوى صحيفته لساناً للمدرسين ومكاناً لأخبارهم عظمت أوهانت ، وانتزع بذلك من « الوقائع » باباً من أظهر أبوابها ، وهو لا يقف صفحاتها على الشؤون الجدية بل أدخل فى صفحاتها بعض الأحاجى ، وخص معظم أعدادها بالقصة المترجمة ، وهو لون من الأدب لم تكن تعرفه صحافة ذلك العهد ، وهو فوق ذلك باب ساعد على نهضة الترجمة أيام إسماعيل .

وقد حشد الطهطاوى لتحقيق أغراضه فى (روضة المدارس) جلة الأدباء والعلماء ، وجعل من وظائفهم العامة التحرير فى مجلته حتى إن أحداً من أصحاب الفكر لم يفته شرف التحرير فى صحيفة الحكومة الأدبية ، وكان بين من حرر فيها جماعة من موظفى الحكومة الفرنجية الذين كانت تستعين بهم الدولة فى مدارسها العالية والتجهيزية ، وقد تولى كثيرون من الأدباء المصريين القادرين على الترجمة تعريب مقالات هؤلاء الأجانب ، تلك المقالات التى امتازت بالعمق والطرافة والجدة ، وضربت المثل لكثير من المواطنين فأنشأوا المقالات البديعة متأثرين مانشره الفرنجية فى روضة المدارس وشاعت المنافسة بين الأجانب والمصريين واستفاد القارىء سواء كان موظفاً

أومن عامة الناس الذين ساهموا ببعض المقالات في شتى الموضوعات .

ومن أجمل ما أثر عن الطهطاوى ومدرسته الصحفية عنايته بشؤون المرأة فكانت الروضة في مقدمة الصحف الشرقية التى عنيت بالموضوعات والأخبار النسوية ، ولم يكن يمضى عدد منها تقريباً دون حديث عنها أو عن نشاطها أو دون نشر خطبة أو مقال لناظرة أو معلية ، ولم تخل المجلة من بعض البحوث التى لا تحتملها آداب العصر لحياة المرأة والرجل فى المنزل وهو نقد اجتماعى لسيوتنا اضطر الكاتب إلى تعبيرات لا تأذن بها صفة الجريدة أو الآداب العامة حتى فى أيامنا الحاضرة .

وقد قضى رفاة الطهطاوى وهو قائم بعمله فى تحرير الروضة ، وهزت وفاته صحافة مصر والشرق الأدنى ، واعتبرته جميعاً أستاذاً الصحافة المصرية الذى خرج خيرة رجالها ، ولم يكن لعلنا السكبير نظير فى آثاره ، فهو مربى جيل المعلمين والمترجمين والصحفيين ؛ وهو صاحب النهضة فى الإنشاء والترجمة وهو أول من فكر فى المرأة وأنشأ عنها الفصول فى الصحف والكتب ، وله مؤلفات ضخمة فى عدة علوم بعضها تأليف وبعضها ترجمة ، وقد استحق الطهطاوى أن يوضع فى مقدمة رجال الفكر فى الشرق وأن يذكر كعلم من أعلامه الصحفيين القمينين بالذكر والإعجاب .

أحمد فارس الشدياق

نشأ الشدياق في لبنان ، من أسرة لها قدرها ومكانتها في خدمة العلم والأدب ، ولها تاريخها في خدمة لبنان وسياسته العامة ، وهي أسرة امتاز بعض أعضائها بالحرص على اقتناء أمهات الكتب حتى كان منهم صاحب « المكتبة الشرقية » المعروفة وكان منهم البطارقة الموارنة ، ورجال الدين في القرون الماضية أهل العلم وأصحاب الرأي عند العامة ورجال السلطان على السواء .

ولد أحمد فارس الشدياق في سنة ١٨٠٤ ليكون عالم أسرته وغفر عروبته وعلماً في صحافة الشرق تزهو به أمته ، وقد مضى في مرافقته مكباً على دراسة الآداب العربية والسريانية في لبنان ، ثم استكمل مرافقته إلى مطلع شبابه في مصر حيث مضى يطالع صحاح الجوهري وديوان المتنبي ، ووصل حباله برفاعة الطهطاوي بعد عودته من باريس ، فأنس أستاذ الصحافة المصرية في هذا الشاب كفاية بهرته فضمه إلى معاونته في تحرير الوقائع المصرية وكان ذلك أول عهده بالصحافة والصحفيين ، إذ قضى في مدرسة الصحافة المصرية ردهاً من الزمن شغل بالإنشاء والمرانة على التحرير ، وكان في الوقائع متصلاً بالطهطاوي اتصال التلميذ بالأستاذ سواء في عمله الرسمي أو في قراءة آداب العرب عليه .

وأحسن الشرق الأدنى وجود هذا الشاب وهو لم يستكمل بعد اثني عشر من عمره فدعاه المرسلون الأمريكيون إلى جزيرة مالطة حيث كان لهم نشاط مطبعي يعوزهم رجل فني قادر على إنجازهم ، فأقام صحفيين أربعة عشر عاماً يدير مطبعتهم ويصحح مطبوعاتهم ويعلم في مدارسهم ، وكان شديد الصلة بهم حتى

تبع مذهبهم الديني وكتب تاريخاً لمالطة سماه «الواسطة في معرفة أحوال مالطة» ثم أنشأ «اللفيف في كل معنى طريف» و«البا كورة الشبية في نحو اللغة الانكليزية» وأخيراً أصدر في مالطة كتابه الأدبي المعروف «المحاوراة الإنشائية في اللغتين العربية والإنكليزية» وكان له في هذه الصخرة نشاط أدبي ملحوظ سجله في كتب أخرى مختلفة، ومضى الشدياق مرتحلاً في ربوع أوروبا مؤثراً لباسه العربي، ولفت النظر إليه لا بطراقة ثيابه بل بما امتاز به من حضور البديهة وحسن الالتفات، ودقة الملاحظة. وقد أمضى في رحلته عشر سنوات ألف أثناءها كتابيه المشهورين «كشف الخبا عن فنون أوروبا» و«الساق على الساق في ما هو الترياق» كما قام بترجمة التوراة إلى اللغة العربية^(١).

ثم دعاه باي تونس الثالث عشر إلى بلاده ليشرف ويعاون على نشاط على اشتهر هذا الباي بالحرص على تأييده والتمكين له، وهنا فصل الشدياق بين ماضيه الديني واعتنق الإسلام وتسمى باسم أحمد فارس الشدياق^(٢). ثم انتقل المترجم إلى عاصمة السلطان وكان قد نشأ ابنه «سليمان» تنشئة أدبية ممتازة فتركه في خدمة باي تونس يقوم بقسط في تحرير «الرائد التونسي» وهي صحيفة عربية كان لها مقامها الممتاز في شمال إفريقيا، وكانت هذه الصحيفة «مصرية» الروح بما قدمه فيها سليم من موضوعات تعلن عن مصر وخديوها أحسن إعلان^(٣) ومضى يعد مستقبله العظيم ثلاث سنوات وينظم لجريدته «الجوائب» التي ظهرت في الآستانة سنة ١٨٦٠ كأعظم صحيفة عربية في ذلك الوقت، سماها معاصروه «تيمس الشرق» ثم عاونه بعضهم في إصدار صحيفة «حوادث» التركية التي زاملت الجوائب فترة من الزمن^(٤) وقد برغ

(١) تاريخ الصحافة العربية - ١ ص ٩٦ طبعة ١٩١٣

(٢) راجع وثائق عابدين المختلفة في هذه الناحية من تاريخ اسرة الشدياق في عالم الصحافة

(٣) كانت الجريدة التركية تتمتع بمعطف الخديوي اسماعيل الذي رتب لها إعانة سنوية.

راجع في ذلك الوثائق المختلفة التي أشرنا إليها في فصل سابق ونحن نتحدث عن سياسة اسماعيل الصحافة.

نجم الشدياق فيما أذاع من مقالات في الأدب والسياسة امتازت بأسلوبها الرائع ولفتاتها العميقة ، وهياً له اتصاله الشخصي برجال الحكم النجاح في مهمته الصحفية ، فكانت أخباره السياسية تنقلها صحافة الشرق والغرب على أنها تمثل اتجاه السلطان وتصور التيارات السياسية العليا في عاصمة الخلافة ، وانفرد الشدياق بمقالات في الأدب كانت تنقلها صحافة الشرق الحديثة وفي مقدمتها صحيفة « وادي النيل » ، لأحمد أبو السعود أفندي (١) ، وساهم في جدال أدبي مع أقرانه من أقطاب العصر وفي مقدمتهم الشيخ إبراهيم اليازجي والكونت رشيد الدحداح والشيخ إبراهيم الأحبب والدكتور لويس صابونجي وكلهم من خاصة الأدباء الصحفيين في الجيل الماضي .

وقد نشر الشدياق صحيفته أسبوعياً في مطبعة السلطنة حتى استكمل أهبتها وأنشأ في سنة ١٨٧٠ مطبعة خاصة بها زودها بأحدث أنواع الفن المطبعي ، وبذلك مضت صحيفته قدما كأروع صحيفة عربية عرفها الشرق منذ ظهور الصحافة العربية فيه ، وكان ملوك العرب وأمراؤهم وعلماؤهم في تركيا ومصر والجزائر وتونس ومراكش وزنجبار وجاوا والهند وغيرها يحتفون بها ، ويرون فيها صورة تطابق أمانهم في اتجاه الفكر ووحدرة الروح والمزاج ، وكان في مقدمة المحتفين بها العاملين على تدعيمها السلطان عبد العزيز ، فهي تؤيد سياستها سياسة الخلافة العثمانية ولها عند المسلمين منزلة يرجو السلطان أن ينتزع بها الإعجاب من كافة داخل سلطنته وخارجها ، ورصد لها الخليفة مقابل هذا كله خمسمائة ليرة عثمانية في كل سنة ، وهو قدر من المال يعين أية صحيفة في ذلك الوقت ترجو لحياتها النضج والاستواء (٢) .

ثم عقد أحمد فارس الشدياق ، كعلم من أعلام الصحافة وداع من كبار الدعاة ، أواصر الود مع بعض ولاية السلطان في الشرق وفي مقدمتهم

(١) راجع العددين النادرين من وادي النيل الصادرين في ١٣ ، ٢٠ سبتمبر ١٨٦٧

(٢) تاريخ الصحافة العربية للكونت فليب دي طرازي . الجزء الأول . ص ٦١

محمد الصادق باشا باي تونس ، واسماعيل باشا خديو مصر ، فأما باي تونس فقد ترك له الشدياق ولده سليما ليسكون محرراً لصحيفة « الرائد التونسي » وهي من الصحف الشرقية الرسمية التي لها عند العرب والمسلمين مكانها المقدور .

أما الخديو إسماعيل وعلاقة الشدياق به فلها جوانب من الود والحب كشفت عنها بعض الوثائق التاريخية حديثاً ؛ فصلات صحنينا مع أمير مصر صورتهمما جميعاً صديقين ، لا تفرق بينهما مهنة أو رتبة أو جاه عريض أو خفيض بل كانت علاقة الصاحبين علاقة يزجها اتفاق القصد وإعجاب كل بصاحبه ، أما الشدياق في جوابه فكان يريد من غير قيد أو حدود سياسة خديو مصر ؛ ويذيع عنه وعن مصر أحسن ما يمكن أن يذاع عنهما ، وإذا كانت جريدة « الطان » وهي كبرى جرائد فرنسا « جريدتنا الفرنسية » كما كان يسميها نوبار باشا فكذلك كانت « الجوائب » جريدة مصرية بروحها وعطفها على وادي النيل ، وإذا كانت جريدة الطان قد أثبتت التاريخ أنها لقيت عطفاً ما ديا من خديو مصر ، فإن الجوائب لم تشر إليها الوثائق التاريخية بأنها نالت أجراً على وفائها ورعايتها لمصر وخديوها^(١) وإن كان لا يترتب على ذلك سوءة تقلل من شرف تاريخها أو كريم خطاها ، والشدياق في الاستانة داعية للخديو ووسيط له عند السياسة العليا كلما تأزمت الأمور بين مصر والسلطان .

وقد كتب سليم بن أحمد فارس إلى رياض باشا رداً على طلب الباشا بضرورة توزيع الجوائب في عواصم الشرق الأدنى قائلا « أحب أن أوضح أن جريدتنا لا توزع في بغداد أو سوريا فقط بل في جميع الممتلكات العثمانية ، وأنه مع هذا الجريدة الرسمية لتونس محتوية على بضع مقالات عن مصر ، وإني لسعيد أن أعلن سعادتك بأن هذه الصحيفة ستستمر في إذاعة كل ما له صلة بمصر »^(٢) وكثيراً ما كتب الشدياق إلى الخديو نفسه في أسلوب يوضح

(١) راجع محفظة رقم ٥٤ مينة تركي في محفوظات عابدين التاريخية .

(٢) محفوظات عابدين Dossier N 45/2 في أول فبراير ١٨٧٠

لنا العلاقة الوثيقة التي كانت بين أصحاب الجوائب وبين سموه ؛ فقد تلقى الخديو إسماعيل كتابا من الشدياق يذكر له فيه أنه بمناسبة «تنظيم جريدة الجوائب أرسل (أى سليم) إلى حكومة الباي استقالته ليدير الجوائب ، وليضع خدماته المتواضعة تحت أقدام سموه» ثم يعبر له عن سروره «إذا تفضل فسمح له بأن يرسل إليه أو إلى من يعينه مع كل سفينة مصرية جميع الأخبار التي من شأنها أن تهتم سموه ولها شيء من الخطر إذ أنه على اتصال بأعضاء السلك السياسى وجملة من عرب بغداد وتونس وطرابلس ومراكش»^(١) وبذلك يستطيع أن يقف الخديو على مجريات الحوادث التي تهتم حكومته ، ولم يتوان الخديو في تحقيق هذا الرجاء فعين إسماعيل صديق باشا كاتماً لسره في هذه الشؤون ، ومضى الشدياق يكتب للبasha أهم أنباء السياسة العليا في الآستانة ثم يذكر في كتاب شخصى للخديو بأنه «إذا حدث شيء جديد فالعبد يعرضها على الاعتبار في المرة الآتية»^(٢) فالشدياق هنا كاتب الأمير وداعيته في الآستانة ووسيطه عند الأتراك والأعراب وثقته في الحوادث والأخبار ، وقد أثبتت السلخ التي أرفقها الشدياق أو ابنه سليم من جريدة الجوائب على أن هذه الجريدة كانت صحيفة مصرية قبل أن تكون صحيفة لسلطان تركيا ، فإن فيها الدعوة لمصر وتزكية مثلها واضحة وضوحاً لا شك في صدقه ، وفيها أيضاً معنى الوفاء الصادق من المحرر لولى النعم .

وقد امتحنت صداقة الأمير والكاتب امتحاناً أثبت براعتها وأيد نزاهتها ، فقد عزل إسماعيل في سنة ١٨٧٩ ، وتنكر له خصومه وانفض عنه أعوانه ، ولم يبق له نصير بين رجال الصحافة في مصر أو خارج مصر ، إلا أحمد فارس الشدياق فكان رجلاً نبيلاً أبى أن يجارى أعداء الخديو فيما ذهبوا إليه ، إذ نشرت صحيفة «ترجمان حقيقت» التركية مقالاً صورت فيه الخديو المعزول

(١) محفوظات عابدين . المصدر السابق

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢٥٥ محفظة ٥٢ مئة تركى في ١٧ رجب ١٢٩٢ هـ

أقبح تصوير ، وأرادت سلطات الحكومة العثمانية أن تذيع هذه المقالة البذيئة صحيفة عربية مقرومة في أواسط المسلمين كافة فلم تجد أفضل من (الجوائب) مكانا لنشرها ، ولم يكن في مقدور رجال الحكم أن يقرضوا نشر ذلك المقال لأن القوانين لم تكن تعطي الحكومة التركية هذا السلطان ، فحاولوا مع الشدياق بشئ الطرق أن يأذن بنشر هذا الطعن في صديقه فأبى ، بل إنه كان أكثر سخاء في وفائه بما كان يتخيلة أصحاب السلطان ، فنشر مقالا رائعا عن الخديو إسماعيل عنوانه « سفاهة الحقيقة » ردأ على مقال الجريدة التركية ، وفيه تسفيه لأراء خصوم الأمير المعزول ودفاع حار عن سياسته ، ولم تحتمل الحكومة أن يبقى أحد من أصدقاء إسماعيل على مثل هذا الولاء فأصدرت أمراً بإغلاق الجوائب ستة أشهر ، استقبله الشدياق راضياً فأجاز بذلك امتحانا وضعه في أكرم مكان من رجال الرأي الذين يعيشون لفكرتهم وحدها ^(١) .

وقد مضى الشدياق وفاقاً لبيت محمد علي ، وإن قلت عنايته بالسياسة المصرية بعد عزل إسماعيل ، غير أنه وقف إلى جانب الخديو توفيق يوم اشتدت محنة مصر أثناء الثورة العرابية ؛ وكان من خصومها المعروفين ، فنشر المقالات ضد الثورة وأذاع منشور الباب العالي ضد العرابيين ، ثم انتقل بصحيفته إلى مصر سنة ١٨٨٣ وتولى ابنه سليم شئونها جميعا بعد أن أثقلت الشيخوخة كاهل أبيه ؛ وبقي أحمد ينتقل بين مصر والآستانة حتى نزل به النضاء في سنة ١٨٨٧ ونقل جثمانه إلى لبنان ، وأبنته الصحف في العالم كله ، وقالت عنه جريدة الوطن المصرية إن « الجرائد العربية بهديه اهدت وبمثاله اقتدت » ثم تقول « فكان كالبحر الزاخر الذي لا أول له ولا آخر ، بل كان آية من آيات الله الكبرى في نثره ونظمه وتأليفه

(١) فيليب دي طرازي . تاريخ الصحافة العربية - ١ ص ٦١

وتصانيفه، وذكرت (الإجبتين جازيت) « أنه نال أعظم شهرة في حسن التعبير والتحرير وبلاغة الإنشاء ، وفصاحة العبارة حتى أحرزت الصحيفة بذلك — يقصد الجوائب — أهمية ما نالتها قط صحيفة عربية لا قبلها ولا بعدها .
وللشدياق بجانب نشاطه الصحفي والأدبي الخاص فضل لا ينكر في إحياء النهضة العربية عن طريق مطبعة الجوائب التي أخرجت مئات المؤلفات له ولغيره من رجال لبنان وقادة الرأي في ذلك الزمان .

وقد أרך لعلمه وأدبه صاحب تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر فذكر أن الشدياق « امتاز بإتقان فني النظم والنثر والإجادة في كليهما ، فقرأه إذا نظم أو نثر إنما يفعل ذلك عن سعة وإرتياح كأنه وعى ألفاظ اللغة في صدره وأخذ عليها عهداً أن تأتيه صاغرة حاملة محتاج إليها ؛ فإذا خطر له معنى سبكه في قالب من اللفظ لائق به بغير أن يتكلف في ذلك مشقة أو تردد أو فترى كتاباته طليّة طبيعية ليس فيها شيء من التكلف أو التقعر على كونها بليغة فصيحة ، والسبب في ذلك حدة ذهنه وقوة ذاكرته وسعة اطلاعه وكثرة محفوظه مع حرية قلبه ، وكان يطلق لقلبه العنان غير محاذر ، وأظنه السبب فيما نراه في بعض مؤلفاته من المجون الذي تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا . على أن المجون إذا لم يتجاوز حده كان أحماضاً أو هو بمثابة الملح للطعام ، وذلك كثير في كتابات المترجم مما يرغب المطالع في المطالعة فلا يمل منها وإن طالت به ، ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة وارتباط المعاني بعضها ببعض واتساقها مع التوسع في التعبير وتبعية الموضوع إلى جزئياته مع مراعاة الموضوع الأصلي والعود إليه ؛ وترى ذلك واضحاً في كتابه « كشف المحجبا » فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلاً فإنه يتطرق منها إلى ما يماثلها من عادات العرب أو الأتراك فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك وما هو سبب هذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك أنه خرج عن الموضوع ثم لا تشعر إلا وقد عاد بك إليه بغير

تكلف وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة ، وترى في مؤلفاته كثير آ من الألفاظ العربية جاء بها للتعبير عن معان حديثة أفرنجية لم تكن عند العرب ، وهى فى الغالب تدل على حسن اختيار ؛ ومن الأدلة على اقتداره فى التعبير أنه مغال فإذا مدح بلغ بمدوحه عنان السماء وإذا هجا أنزل مهجوه دركات الجحيم ، وترى كتاباته على بلاذتها وحسن سبكها تتجلى فيها البساطة والسهولة كأن كاتبها كان يكتب كل ما يمر بذهنه على غير تكلف أو مراعاة لخطه الكتاب قبله ، وهو استقلال فى الرأى واعتماد على النفس ،^(١) .

وقد حرص سليم الشدياق أن يؤرخ لجهاد أبيه أحمد فارس فعمد إلى جمع غير ما نشرته جريدة «الجوائب» من فصول فى الأدب والاجتماع نثرآ وشعرآ ثم طبعه فى سبعة مجلدات ضخمة سماها «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» ، وقد دلت هذه المجموعة من المجلدات على أن سليما كان سر أبيه أدبآ وفضلا فقد كشفت هذه المجلدات عن موهبته الأدبية وقدرته فى التحرير والإنشاء . وذلك كان أثرآ من آثار أبيه فى جيله كله حتى نهج نهجه كثيرون غير ولده سليم .

(١) مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر .

بطرس البستاني

من أسرة لبنانية لها على الزمن فضل ماثور ، تلقى مبادئ اللغتين العربية والسريانية على أحد أبناء أسرته هو ميخائيل البستاني ، وأحس مطران صور وصيدا أن هناك قى تفرد بالذكاء وامتاز بالفطنة والاجتهاد فدعا إليه المترجم وبعث به إلى مدرسة عين ورقة بلبنان ، فأمضى فيها عشر سنوات درس فيها اللغة والمنطق والتاريخ والحساب والجغرافيا وجود في اللغات السريانية واللاتينية والآيطالية ، وتلقى بجانب هذه الدراسات الأدبية الفلسفة واللاهوت وبعض مبادئ القانون ، وكاد المترجم يقف حياته على دراسته اللاهوت ويمضى في روما عدة سنوات لولا معارضة أسرته فعين في مدرسته أستاذاً ودرس لحسابه اللغة الانجليزية واعتمد عليه الانجليز مترجماً لهم يوم نزلت جيوشهم الشام لحرب ابراهيم باشا ومكافحة محمد علي في تلك الربوع ، وانتهت هذه الفترة من حياته بانصاله بالأمريكان الناشرين لمذهبهم فضى يعلمهم اللغة العربية ويترجم بعض كتبهم ، وتوثقت علاقته بهم وآمن باتجاههم الديني فدخل في مذهبهم وعمل على نصرته .

وفي سنة ١٨٤٧ شارك أستاذه الدكتور فان ديك في إنشاء مدرسة عمل فيها أستاذاً ، ثم مضى خلال عامي تدريسه يؤلف كتاباً ضخماً في الحساب كان له قدره في مدارس سورية ولبنان ، ثم نزل البستاني مدينة بيروت موظفاً في قنصلية أمريكا ، غير أنه وقف معظم وقته على الترجمة والوعظ وتمكن هنا من اللغتين العبرية واليونانية ، فاستعان به بعضهم في ترجمة التوراة إلى العربية .

وفي سنة ١٨٦٣ أسس في بيروت مدرسة عالية أطلق عليها اسم « المدرسة الوطنية » قاصداً من إنشاء هذه المدرسة أن تكون مكاناً للحرية الدينية؛ ويدعو فيها إلى الجامعة الوطنية العثمانية، وكانت المدرسة الوطنية في ذلك الوقت تحيا حياة الجامعات الأوروبية فعرف فيها الشآميين سواء كالمصريين والأتراك واليونانيين والعراقيين، وكانت حرية العلم والفكر تسيطر على اتجاهها حتى أشار أحرار الأتراك على السلطان بأن يكرم صاحبها بنشان، وساهم سليم بن بطرس البستاني في إدارة المدرسة وتولى تدريس التاريخ والطبيعة واللغة الانجليزية التي كان يجيد آدابها كواحد من خيرة أبنائها، وقام والده فيها بتدريس اللاهوت والدين بالخطب والمواعظ مرتين في الأسبوع .

ثم عكف المترجم على عمل أدبي رائع وفرغ منه سنة ١٨٦٩ وهو تأليف معجمه (محيط المحيط) وقد رتبته على حروف المعجم، وجمع فيه كثيراً من الألفاظ العامية وصحتها بالفصحى وبين أصول كثير من الألفاظ الأجنبية، ونشر فيه بعض الاصطلاحات التي تأثرت بالعلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الأجنبية، كما بسط عبارته وسهلها فجاء كتاباً ضخماً يعين العامة ويرضى عنه الخاصة من العلماء والمتأدين، ثم نشر له نسخة مختصرة لطلاب العلم وتلاميذه في المدارس المختلفة، ولقى على هذا العمل الأدبي تكريم المسؤولين في الدولة العثمانية ونال من برها الأدبي والمادى الشيء الكثير .

وملك بطرس البستاني كما رأينا ناصية بعض اللغات القديمة والحديثة وبرز في اللغة العربية، ثم رأى الرجل مواطنيه قد فرغوا من حربهم الأهلية وهي حرب آذت النفوس حتى تركتها نهب الحقد والضغينة فوجد أن عليه رسالة يؤديها كعلم في تلاميذه فأنشأ نشرة سماها « نفيير سوريا » أصدرها باللغة العربية سنة ١٨٦٠ كأول صحيفة في الشآم، وهي من صفحتين كان كاتبها

فيها معلما، إذ نشر على صفحاتها رسائل وطنية تحض على الوحدة وتعمل لها بين السكان على اختلاف مذاهبهم الدينية والسياسية وأصدرها ثلاث عشرة مرة، وكانت في أعدادها نفيرا يدعو إلى الوئام ويؤيد بين المواطنين المحبة والسلام، فأذا هدأت النفوس الثائرة وأخذ الناس إلى السلام وقف صدورها بعد أن أدت رسالتها أحسن الأداء.

وقد كان صحفيها في نفيره داعياً للوحدة في أسلوب رفيع من حيث لفظه ومعناه، فقد جاء في نفير منها ^(١) «يا أبناء الوطن! إن الفطائع والمنكرات التي ارتكبتها أشقيائنا هذه السنة كسرت القلوب وأسالت الدموع وعكرت صفاء الألفة وأضاعت حق الجوار. أما تمالح الجاران؟ أما شربتم ماء واحداً؟ أما تبنشقتم هواء واحداً؟ أما رأيتم العقلاء ساعين في تشييد أركان الألفة ورفع منار العلم رغبة منهم في ارتقاء البلاد وسعادة العباد؟ إعلوا أنكم بعملكم المنكر قد أرجعتم الوطن إلى الوراء نصف قرن هدايا الله وإياكم سواء السبيل» ^(٢).

فهو في هذا الأسلوب القوي الدقيق يبدو معلماً كعهد مواطنيه به وكما كانت صفته البارزة، وهي صفة المعلم تغلب عليه حتى إذا أمسك بالقلم وأراد أن يكون صحفياً مع الصحفيين.

وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ البستاني مجلة للعلم والأدب والسياسة سماها «الجنان» وألقى أمور الإدارة فيها إلى ابنه سليم؛ ثم نشر بالاشتراك مع ابنه هذا في نفس هذه السنة صحيفة سياسية سماها «الجنة» وهي معتدلة المزاج ولا تنسم بالعنف بل جارت التيارات السياسية المعاصرة وأيدت بقوة اتجاه السلطان، وكانت تعمل لمصر كصحيفة مصرية ونالت من بر الخديو إسماعيل الكثير

(١) كان بطرس البستاني يرقم جريدته بقوله النفير الاول . النفير الثاني الخ بدلا من العدد الاول والعدد الثاني الخ
(٢) تاريخ الصحافة العربية - ص ١٦٤

من المال ، وقد أشار إلى ذلك بعض الوثائق التي اكتشفت أخيراً بمحفوظات سراى عابدين التاريخية^(١) .

ولم يقف النشاط الصحفي لبطرس البستاني عند هذا الحد ؛ فقد دفع نجله إلى العمل في صحيفتيه « الجنان والجنة » ، ثم أصدر صحيفة جديدة سماها « الجنينة » ، وأشترك في تحريرها أديب من أسرته هو ابن عمه سليمان البستاني ، وهو كاتب ومترجم من الطراز الأول له ترجمة طيبة لإلياذة هوميروس ، وهو من الشخصيات الممتازة التي استحققت عضوية (مجلس الأعيان) فيما بعد ؛ وصحيفته هذه تعتبر أهم عمل له في نشاطه الصحفي ، فهي جريدة للتجارة والسياسة من صفحتين في قطع متوسط ، صدرت سنة ١٨٧١ .

وقد تولى تحرير الجنينة الثلاثة الأساطين في أسرة البستاني ، بطرس وسليم وسليمان ، وكانت (الجنينة) أول محاولة صحفية لمشر صحيفة عربية يومية في الشام ، فكانت تصدر معظم أيام الأسبوع ، وهي صحيفة تعنى بالبرقيات السياسية ، فكانت تنشرها في الصفحة الأولى ، ولم يعتد الشرق العربي حتى صدور الجنينة أى عناية بالأخبار البرقية كما فتحت صدرها لمراسلات الأقاليم وأخبار البلاد العربية ، وهي عناية جديدة في صحافة الشام بهذه الناحية من التحرير (والجنينة) أول صحيفة في الشرق الأدنى تعنى بشئون التجارة وبقيت وحدها في هذا الشرق تبدي هذا العلم بشئون المال حتى نشر أديب أسحق صحيفته (التجارة) في القاهرة سنة ١٨٧٩ ؛ وكان القسم التجارى في الجنينة مطولاً ومتقناً ويشمل أسعار التجارة وأخبار القراطيس وبعض التعليقات التي لا تخلو من العلم والمعرفة بهذه النواحي من حياة الأمم والشعوب

(١) كان الحديو اسماعيل مشتركاً في خميسة نسخة منها : راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١٩ محفظة ٤٨ مئة تركي في ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٨٨ هـ .

وقد مضت حياة بطرس البستاني نهبا للصحافة والأدب ، وعاش ما عاش موزعا جهده بينهما لا يكل ولا يمل ولا يمضي عام لا يكون له فيه أثر أدبي أو صحفي ، فهو يخرج من الصحافة ليقوم بعمل أدبي ينافس تاريخه الصحفي ؛ فقد وجد في أخريات أيامه بابا للنشاط العلمي فدخل فيه بكلياته ، وعول على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف موضوعاتها وتباين أزمانها ، وبدأ هذا النشاط في عام ١٨٧٥ ، وهو النشاط المأثور عنه في كتابه « دائرة المعارف » وهو أول محاولة من هذا اللون الأدبي في اللغة العربية فيما نعلم ، وقد أتم ستة مجلدات منه ثم عاجلته المنية سنة ١٨٨٣ فقام على إتمام هذا الإرث الرفيع أبنائه وأقاربه ونشروا المجلدات تباعا في بيروت ثم في مصر .

ويحذر بمن يترجم لهذا الصحفي الأديب ألا يغفل جهده الجبار في إنشاء « دائرة المعارف » التي صورها المؤرخون أجمل تصوير حين قالوا فيها وفي منشئها « وإننا لانغالى فيما إذا قلنا إنه أبدى من العزيمة الماضية والهمة السامية في تأليف الكتاب وطبعه مالا يتوقع من رجل واحد ولا سيبا في ديار الشرق ولكنه ألقى من مواطنيه وكل أهل المطالعة والأدب عموماً ومن الحكومة المصرية خصوصاً يداً بالندى ندية ، أما الحكومة المصرية فارتاحت أيما ارتياح إلى اقتناء هذا الكتاب شداً لأزر صاحبه أولاً وجلباً للنفع إلى مدارسها ومكاتبها ومحافلها العلمية ثانياً ^(١) ثم إن الذي يعلم من تاريخ الأسكوليبيديات الابتدائية الأوروبية أنها لم تكن في منشأ أمرها على ربع ما هي عليه (دائرة المعارف) من إحكام التأليف وغزارة المادة والضبط وحسن الطبع والورق والتجليد والصور مع قلة في الثمن لا أقل منه إلا أثمان الكتب العادية ، فحق إذاً لأبناء اللغة التباهى والتفاخر بذلك الرجل » ^(٢).

(١) أشارت الوثائق التي تصور سياسة اسماعيل الصحيفة الى المعارنة التي قدمها الهدو المذكور للمترجم

(٢) تاريخ الصحافة العربية - ص ٩١

ويمتاز بطرس البستاني في حياته أنه استطاع أن يتمم رسالته في جميع النواحي التي ساهم فيها مساهمة الأصيل ؛ فهو يبدأ وظيفته كمعلم في زمن كانت مهنة المعلم في الشام شاقة ، ويبدأ في تأليف آثاره الأدبية والحياة الأدبية راكدة تكلف من المال والجهد ما تنوء به الجماعات ، وينشط إلى الصحافة ويجود فيها في جيل لا يؤمن كثيراً برسالتها ، ويستطيع مع ذلك كله أن ينال شأو المعلم العظيم والأديب الأريب والصحفي المطبوع ، ويحتل بذلك في عالم الأدب والصحافة مكانه المقدور بين جلة الأدباء والصحفيين .

وللبستاني امتياز آخر يكاد ينفرد به ولا ينافس فيه أحد في البلاد العربية جميعاً ، اللهم إلا أستاذ الصحافة المصرية رفاعه الطهطاوى ، فكلاهما صاحب مدرسة صحفية يؤثر عنها خير كثير . وإذا كان الطهطاوى قد علم بمجموعة من الشبان المصريين والشاميين في جريدة الوقائع المصرية ، وعلم غيرهم شؤون التحرير وأصول الصحافة في مجلة روضة المدارس ، فإن البستاني قد أنجب فئة قادرة من صحفيي لبنان ، في مقدمتهم بعض أفراد أسرته الذين برزوا في هذا المضمار ، وكتبوا صحيفة ناصعة البياض في أدق المهن وأرفعها .

يعقوب بن صنوع

يمتاز شكلاً بهذه العوينات الزرقاء التي لم تفارقه في مصر حيث ولد ونشأ ،
أو في منفاه حيث استقر به المطاف ، وصحبته منذ بدأ عمله في التمثيل ، ثم
مضت معه حين انتقل إلى الصحافة ، وبقيت تلازمه حتى وافاه أجله في
القرن العشرين .

هو كاتب من طراز آخر ذير ما عرف به الصحفيون في عصر اسماعيل ،
ناقد مر النقد ، قاس في أسلوبه وفي حوار ، يطلق قلبه دون أن يتقيد بقانون
أو يخاف حاكماً ، أو يشعر أن للمناقشة حدوداً أو آداباً ، عرفه عصره كله
بجميع طبقاته من الأسرة المالكة إلى أسر الفلاحين في قلب الريف ، ولم تشهد
الصحافة المصرية قلباً حمل على الخديويين والانجليز كما حمل يعقوب بن رافائيل
صنوع (أي المتواضع) ، وهو مصري إسرائيلي ولد سنة ١٨٣٩ ، أتقن
التوراة وقرأ الانجيل والقرآن ، وتعلم في إيطاليا على نفقة أحمد باشا يكن
سبت محمد على الكبير ، ثم عاد إلى مصر وأخذ يدرس اللغات والموسيقى
والرسم لأفراد الأسرة الخديوية وأبناء الباشوات^(١) .

وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ صنوع أول مسرح عربي في القاهرة ووضع بذلك
تاريخ إنشاء المسرح في مصر ، وأعجب به الخديو اسماعيل إعجاباً دعاه إلى أن
يسميه — إذا ذكر التمثيل — « مولير مصر » ، ومنحه المنح وأمدّه بالعون
الأدبي حفّض فصول تمثيله تشجيعاً منه وتزكية له . وقد ألف المترجم نحواً من

(١) l'Egypte Satirique. Paul Baignières. Album d'Abou Naddara.

اثنين وثلاثين قطعة تمثيلية في موضوعات جدية وهزلية ، يتراوح عدد فصول كل قطعة بين الفصل والخمسة . وكان هو عبارة عن المؤلف والملقن والممثل الأول ، وفي رواياته الملاحظة الصادقة ، والابتسام الصريحة والدموع الخالصة (١) ، وكان صنوع حركة دائمة نشطة فأنشأ جمعيتين إحداهما اجتماعية والثانية علمية ، ثم سافر إلى أوروبا في عام ١٨٧٤ ، وبقي هناك فترة عاد من بعدها مشغولاً بالحياة الأوروبية وبحضارة الغرب .

ولما عاد إلى مصر وجد فيها رأياً عاماً بدأ يتطور تطوراً سريعاً ، فانصل بزعامة هذا الرأي العام الجديد ، واشتدت صلته بالسيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده عن طريق تدريس اللغة الفرنسية لهما ، وكان جمال الدين في ذلك الوقت يقود الحركة الفكرية في مصر ، ويرى أن نجاح هذه الحركة يقتضي صحافة حرة مختلفة الأساليب وإن اتفقت أهدافها ، فاتفق ثلاثهم على تأسيس مجلة عربية هزلية ، يديرها هو ويحرر فيها الآخرون ، لانتقاد أعمال البطانة الخديوية وكشف مساوئ الحكم ، فاتخذ لها اسم نظاراته الزرقاء ، وهكذا صدر العدد الأول من الجريدة سنة ١٨٧٧ يحمل هذا الاسم الطريف (٢) .

وتعد جريدة يعقوب بن صنوع أول جريدة من نوعها لا في مصر وحدها ، بل في بلاد الشرق جميعاً ، فهي جريدة هزلية لم ير المصريون مثلها من قبل ، وهي تصدر في أسلوب أكثره دارج على ما تصدر به ألسنة المواطنين من حكمهم وتردده من أقوال شيوخهم التي جرت مجرى الأمثال في أحاديثهم ، وهي إلى جانب ذلك مصورة تصويراً هزلياً بديعاً ، ويعقوب في صحيفته هذه يتزعم هذا اللون الصحفي في بلاد الشرق جميعاً .

(١) ص ٦ L'Egypte Satirique

(٢) طرازى ج ٢ ص ٢٨٣ تاريخ الصحافة العربية .

أصدر صنوع جريدته في مصر ، ومضت قدما ، ولقيت إقبالا منقطع النظير وتهاقت عليها الناس من جميع الطبقات في المدن والريف وبلغ عدد ما كان يطبع منها خمسة عشر ألف نسخة (١) .

« وقيل إنه في أثناء غناء أحمد سالم المغنى المعروف في القاهرة إذ ذاك دخل بائع الصحف وباع ٣٠٠ نسخة إلى المستمعين من جريدة أنى نصارة ، فانصرفوا عن المغنى إلى قراءة الجريدة » .

وكان المغنى يترنم بأغنية واضعها أبو نظارة اسمها « المضطهد » وأثارت هذه الأغنية حماسة المستمعين فقبض على أحمد سالم وسجن عشرة أيام (٢) .
ولسكن حملته على الحكومة ومعالجته للبسائل العامة بهذا الأسلوب العنيف أغضبت الخديو اسماعيل فأقفل جريدته ، وعالج أمر بقائه في مصر واستطاع بعد جهد أن يستأذن إيطاليا ، وكان صنوع محتماً لها ، في نفيه من البلاد ، فسافر الرجل إلى باريس حيث أصدر جريدته بأسماء كثيرة ، وقد اضطر إلى ذلك نظراً لأن الحكومة المصرية كانت تسيء إلى من يشتريها أو يحوز عدداً من أعدادها (٣) ، فغير اسمها في أربع سنوات ست مرات ، وكانت صحيفته تصدر في أول الأمر باللغة العربية ثم باللغة العربية والفرنسية ، وقد أصدرها في إحدى المناسبات في ثمانى لغات .

وقد حمل صنوع فيما بعد على الانجليز حملات شديدة متصلة وكان لسان حاله في صحفه إذ ذاك (مصر للبصريين) ، وتميزت صحفه بهذه الحملات ضد انجلترا عقب احتلال الانجليز لها في سنة ١٨٨٢ ، وزادت شدة وعنفاً حين تم فتح السودان وأعلنت اتفاقيته البغيضة .

(١) ص ٦ L'Egypte Satirique

(٢) راجع هامش صبرى ص ١٢٧ - ١٢٨ نشأة الرأي العام المصرى

(٣) طرازى ج ٢ ص ٢٨٥ - وقد ذكر ذلك يعقوب فى مجلاته فى أكثر من موضع وفى أكثر من عدد ، وقد عالج ذلك أيضاً فى مقالات بعضها جاد وبعضها هازل

وبعد أن أطلقت الحرية للصحافة المصرية ، ولم تعد الحكومة تشدد على صحفه كما كان الحال من قبل ، وكان ذلك في فترات متباعدة ، من أظهرها الفترة التي تولى فيها شريف باشا شؤون الحكم قبيل الاحتلال مباشرة ، عاد فسمى جريدته باسمها الأول « أبو نظارة » جاءلا شعارها « سعادة الشعوب في صفاء القلوب » ، حتى بلغت عامها الرابع والثلاثين وتعطلت ، لمرضه ثم توفي سنة ١٩١٢

وكانت جرائده مزدهمة بالمقالات السياسية والفصول الفكاهية اللاذعة والقصائد الشعرية الرنانة ، بقلم مشاهير الكتّاب والأدباء ، كالسيد جمال الدين ومحمد عبده ، وعبدالله نديم ، وغيرهم ^(١) . وكان الرجل بجانب عمله الصحفي الخاص ينشر المقالات التي تفيض وطنية وحماسة في جرائد الطان ، والماتان ، والفيجارو ^(٢) ، وكانت القدرة تواتيه على الكتابة لمعرفة التامة باللغة الفرنسية ، التي كان يدرسها لمن يريد من الشرقيين ، أو يدرس العربية لمن يريد من الفرنسيين ^(٣) .

وقد امتاز صنوع في عمله الصحفي ، كما امتاز في عمله المسرحي ، فهو هنا الكتّاب ، والمدير ، ومصور الجريدة ، وطابعها ، وناشرها ؛ هو كل شيء فيها ، وكان لهذه الجريدة التي تطبع في باريس أثر وأى أثر على البلاد الشرقية التي كانت تُقرأ فيها عدداً عدداً ، لذلك خطبت ودّه بعض الحكومات الشرقية وأمدته بالعون ، وأوسع له رجالها صدورهم ، فنحّه السلطان عبد الحميد ، وسلطان زنجبار ، وشاه إيران ، وبابا تونس ، الأوسمة والنياشين ، كما قلده فرنسا ، ومنحه ملوك أوروبا كبلجيكا وأسبانيا هذه النياشين الرفيعة ، واعتبره

(١) طرازي ج ٢ ص ٢٥٥ و ٢٥٦

(٢) طرازي ج ٢ ص ٢٨٤

(٣) رأس العدد الخامس سنة ١٨٧٨

الخليفة « صديق الإسلام » ، وبقي يتمتع بهذه المكانة المقطوعة النظير مدى حياته جميعاً^(١) . وكانت له جريدة أخرى تصدر في لندن اسمها « مرآة الأحوال » ، صدرت فترة في لغة عربية فصيحة^(٢) .

ولا يختلف أحد في الجديد الذي خلقه صنوع في الصحافة المصرية ، وكذلك لا يختلف أحد في أنه كان واعياً دارساً لشؤون الحياة ، عارفاً بأحوال الأمم ، فهو رجل مثقف ، واسع الأفق ، دقيق الملاحظة ، بعيد الغور ، شاعر صادق الشاعرية^(٣) . كثير الرحلة من أجل التثقف والدراسة ، فقد زار بلجيكا وإنجلترا وهولندة وسويسرا ، وقد قالت فيه الجازت دو بوردو : « إنه شاعر ونظرته للأمور وإن كانت مبهمة إلا أنها عميقة »^(٤) . وقد صورت المورنج بوسست والاستندارد كثيراً من عمله الصحفي ونبوغه في السخرية المصرية^(٥) . وذكر بول دوبليير - وهو خير من كتب عنه - أن « له نواحي من الضعف ، بيد أن فيه نواحي من الجمال الحق ، وصفحات سامية ذات قيمة وجديرة بأن تلفت النظر »^(٦) .

وقد كان أبو نظارة فوق عمله الصحفي هنا وهناك خطيباً لا يشق له غبار ، ومحاضراً ساحراً ، وله محاضرات هامة هزت الرأي العام الأوروبي كمحاضرته عن مصر في القرن التاسع عشر^(٧) ومحاضرته عن الغزوة الإنجليزية لبلادها ، ومحاضرته عن المهدي وإخلاء السودان^(٨) . وكان الرجل معروفاً في أوروبا كلها حتى إذا وافاه القدر سنة ١٩١٢ نقلت شركة روتر خبر وفاته كأى عظيم من عظماء الجيل .

(١) طرازي - ٢ من ٢٨٥ و ٢٨٦

(٢) الزافى (عصر اسماعيل) ج ١ من ٢٦٤

(٣) من ٩ « مصر الساخرة » لبول دوبليير

(٤) نفس المصدر من ١٨

(٧) نفس المصدر من ٣٨

(٥) نفس المصدر من ١٩

(٨) نفس المصدر من ١٠٩

(٦) نفس المصدر من ١٠٦

جرائده

ذكرنا أن يعقوب بن صنوع قد اضطر أثناء وجوده في باريس ، وإزاء المخطط الذى فرضته الحكومة المصرية على دخول صحفه إلى مصر ، أن يغير ويبدل فى أسماء هذه الصحف حتى يستطيع أن يهرب منها إلى بلاده قدراً ملحوظاً من النسخ ، وقد نجحت فعلاً هذه الطريقة حتى أمكن تهريب تسعة آلاف نسخة إلى المدن المصرية فى بعض الأحيان^(١) وقد فرضت هذه الظروف القاسية أن يغير اسم جريدته اثني عشر مرة بالأسماء الآتية :

- ١ — أبو نظارة زرقاء .
- ٢ — رحلة أبي نظارة زرقاء .
- ٣ — أبو زمارة .
- ٤ — أبو صفارة .
- ٥ — الحاوى .
- ٦ — الوطنى المصرى .
- ٧ — النظارات المصرية .
- ٨ — أبو نظارة .
- ٩ — الثرثرة المصرية .
- ١٠ — التودد .
- ١١ — المنصف .
- ١٢ — العالم الإسلامى .

وليس فى المكتبة الأهلية بباريس إلا بعض سنوات متأخرة تتصل بالحقبه الأخيرة من حياة الصحيفة ، ولكنها موجودة كاملة بالمتحف البريطانى وتضم المكتبة العامة بالقاهرة كثيراً من أعداد هذه المجلة مبتدئة بالعدد الأول للسنة الثانية ، وهو العدد الذى صدر فى ٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ . أما أعداد السنة الأولى الخمسة عشر فغير موجودة لا فى القاهرة ولا فى باريس ولدراسة شخصية يعقوب بن صنوع كعلم من أعلام الصحافة العربية ، ينبئ أن نعود إلى ما كتب أبو نضارة فى صحفه المختلفة ، فإن سيرته فى

(١) النظارات المصرية ١٥ - ١ - ١٨٨٠ (الوادى المرقى ووزير المشيخ)

روعتها تدرس من هذا الجانب ، حتى لتغفل الجوانب الأخرى إذا قيست إلى جانب حياته الصحفية التي أخذت عليه كل نشاطه ، فمقد عاش الرجل ومات صورة بديعة لمجهوداته الصحفية ، لذلك نحاول في هذه الإلمامة أن نترجم له من خلال جرائده المتباينة .

أبو نضارة زرقا

صدر العدد الأول وعلى رأسه : « رحلة أبي نظارة زرقا (الولى) من مصر القاهرة إلى باريز الفاخرة بقلم جيمس سنوا - أى يعقوب صنوع - محرر جريدة أبي نظارة زرقا البهية والدة النظارات المصرية . » وهي في قطع كبير يشبه كثيرًا مجلاتنا الأسبوعية السياسية ، وقد تضمنت معظم أعدادها أربع صفحات ، وكانت صورها الهزلية غاية في الروعة والاتقان والوضوح ، وهذا المجلد الذى يتبدى في ٧ أغسطس ١٨٧٩ ينتهى في أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٩ ، ويحتوى على ثلاثين عددًا ، كما يحتوى على العدد الحادى عشر من السنة السابعة الصادر في ١٨ أغسطس سنة ١٨٨٣ ، وفي نهاية هذا المجلد إعلان « من الناشر إلى الجمهور ، يتحدث فيه عن جريدة أبي نضارة ومجودها واعداد قراءه بأنه سيقترجها إلى اللغة الفرنسية ، ثم يذكر فهرستًا بالصور والموضوعات التي ظهرت في هذه السنة . وكان ثمن كل أربعين نمرة خمسة وعشرين فرنكًا ، كما جاء بروس معظم الأعداد ، ولم تكن الجريدة منتظمة الصدور ، وكان الناشر يذنب أحيانًا ذكر أرقام الأعداد .

وكان المحرر ينشر كثيرًا من الأزجال وهي عبارة عن محاورات طريفة تصور حياة مصر وتحمل على خديوها ، وأحيانًا يتقسو أسلوبه حتى يبلغ درجة الفحش التي تتعفف أقسى الأقلام عن تدوينه في جريدة سيارة ، ومن

محاوراته الزجلية المعقولة : « محاورة بين أبي خليل وأبي نضارة زرقا على قهوة ريش في بولفار ديزيتليان في ١٤ يوليو سنة ١٨٧٨ بباريز »^(١).

أبو خليل : يا جيمس يا أبو نضارة أنست باريز يا شاطر
معكش من مصر عبارة تنعش بها مني الخاطر
أبو نضارة : إن ردت أحكيك أحكي عن مصر يا باهي الطلبة
بعد الفرح عادت تبكي من نار حوادثها الولعة
مصر السعيدة المحمية بالعز كانت فرحانة
واليوم تشوفها مخمية من ذل حالها زعلانة
في مصر مافيش حرية والظلم خلاها دقة
وإن ردت تدري الكيفية انظر بنضارقي الزرقة
في مصر جور شيخ الحارة ظاهر كالشمس الواضحة

ثم تنتقل المحاورة بين أبي خليل وأبي نضارة زرقا إلى حديث عادى ليس فيه وزن ولا قافية في أسلوب عامي دارج كما رأينا ، وفي حلة مستمرة لا هواة فيها ، وفيها نقد لحياتنا الاجتماعية ، فأبو خليل هذا أحد باشاوات مصر كما جاء في خلال المحاورة ، مغرم بالطعام والمأكولات كما هي عادة باشوات ذلك العهد ! سافر إلى باريز فإذا التقى بأبي نضارة فالحديث الحلو كله يتصل بالطعام واللحوم والمأكولات ، ثم ينتقل به أبو نضارة مبيناً له أن السياحة ضرورة للناس ولعظماهم حتى يروا التقدم العلمى والفنى والصناعى لأن « الدنيا شهوها الفلاسفة بكتاب ، وقالوا إن اللى ما خرجش من وطنه كأنه ما قرأش الا أول صفحة فقط » ثم ينتقل بهم الحديث عن الحياة المصرية الاجتماعية وجهل مواطنيه فيذكر أنها أمة إذا وقع بها الظلم قالت « حكم يا سيدى ، المسكتوب على الجبين تراه العيون » أمة

يظلمها الظالم ويقسو بها الحاكم حتى إذا كادت تموت جوعاً كان احتجاجها :
 « لك الحمد يا رب دى إرادتك » وهكذا يستمر فى نقده اللاذع الصادق ،
 وتصويره الرائع لنفوسنا واستعدادها ، وآمالنا فى هذه الحياة ، مردداً تلك
 الألفاظ التى لا تزال نسمعها إلى الآن ، ألفاظ التواكل والضعف ، والاطمئنان
 حيث لا ينبغى الاطمئنان .

ومن أطرف المحاورات ما جاء بالعدد السادس عن « جلسة سرية فى جمعية
 الطرايطر المشهورة بالضحك على دقون العالم » وهى تصور مداولات مجلس
 وزراء ذلك العهد برأسه الخديو توفيق ، وأظهر ما فى هذه الجلسة حملته على
 المفتى وتصويره بأنه « أغنى من قارون وأملاكه وأراضيه تبلغ ملايين من
 المحاييب » كما زعم أنه رجل مرتش « ماتطلعش من عنده فتوة إلا بالشىء
 الفلانى » وأهم ما فى هذه المحاورة الحديث الذى دار فى جمعية الطرايطر عن
 تدخل الدول فى شؤون مصر وخاصة « الانجليزى بمراكبه والفرنساوى
 بجنوده » على أن حديثه عن إيطاليا يثبت إلى حد بعيد فهم الكاتب للحياة
 الأوربية السياسية ، فقد علق على إيطاليا بأنها أمة متواضعة لم تبلغ وحدتها
 إلا بشقى النفس ، ونظراً لضعف الخديو ووزرائه فإن « ملك إيطاليا ابن امبارح
 اللى لسا ما طاعش من قشرة البيضة قال إذا مارضيناش رعايته يطبق الدنيا
 على دماغنا » .

هذا بعض ما ذكرته مجلة « أبو نمارة زرقا » من محاورات كلها كما رأينا
 فى أسلوب عامى يقرأه العام والخاص ، وهذا الأسلوب العامى هو أصل فى
 تاريخ جرائده جميعاً ، ولكن بعض أعداده لم تخل من مقالات باللغة العربية
 الفصحى ، فى أسلوب مسجوع ، بيد أنه غير عمل على أهل ذلك الزمن ، وخاصة
 العامة منهم الذين قد لا يفهمون منه شيئاً ، ولكنه يرن فى آذانهم فيشنفها
 ويملؤهم رضى وأمناً ، ومن ذلك ما جاء فى جريدة رحلة أبى نظارة زرقا .

وهى (رسالة فى بيان ظلم شيخ الحارة مهدية لأبى نظارة من قلم الفاضل

الأديب واللوزعي النجيب حضرة الشيخ يوسف أفندي الشفعاوي المحترم^(١) قال الكاتب « الحمد لله الأمر بالعدل والإحسان ، الناهي عن البغي والطغيان ، الذي خلق العالم واختار منه بني آدم ، وجعل العدل بينهم نور الهدى لطريق المعاش والمعاد ، ثم مضى الكاتب يعظ ويستشهد بالقرآن في غير موضع بآيات تتصل بالعدل وبعقاب الظالمين ، إلى أن يقول : « إن العدل فرض لازم على كل من تقلد أمراً ولو أمر بيته وعياله ، إذ كل راع مسؤول عن رعيته ، كما ورد ذلك في الحديث الصحيح » ثم يتهم « شيخ حارة وادي النيل ، بالظلم والعدوان ويحمل عليه حملة قاسية في مقالات متتابعة تبدأ في هذا العدد وتنتهي بعد أعداد ، ويبدو فيها الحنق الذي خرج بالكاتب عن آداب المناظرة .

(٢) النظارات المصرية

صدر العدد الأول منها في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٧٩ وفي صدر الصحيفة الأولى رسمت عوينات كتب في أسفلها أنها « جريدة تاريخية علمية تحرير مصر واسكندرية ، وفي نفس هذه الصفحة صورة كاريكاتورية لمحمد علي الكبير كتب تحتها باللغتين العربية والفرنسية « محمد علي جنتكان ينظر من السماء ذل أهل مصر وفقرهم فيتحسر ويتحسبن في فرعون وابنه ... الخ ، كما ذكرت تحت رسم الجماعة التي يطل عليها محمد علي من جنته حسبي الله في ظالمهم ! في صورة ظاهر عليها البؤس والشقاء إشارة البصريين في ذلك العهد ، وينتهي هذا المجلد في ٦ مارس سنة ١٨٨٠

ومن أظهر مقالات هذه السنة (المقامة المصرية) وهي عبارة عن عرض خاطف لحياة مصر وشعور الكاتب الخاص ، ولسكنه عرض يتميز بالحرارة

(١) راجع عدد ٤ من جريدة رحلة أبي نضاره زرقاء .

(٢) راجع دار السكتب المصرية ٨٠٦ دوريات .

ويتصل بالعنف ، فى أسلوب يرتفع أحياناً فى الوصف والخيال ، كقوله عن السفينة التى تخيلها قد أبحرت به إلى الاسكندرية^(١) ، تلك السفينة النارية تريد السفر إلى الاسكندرية فطلبتها أى طلب ، وحملها أثقال التعب ، وغنمت من درر زبدته قلائد فعلقتها بنحرها ، ولم تزل تكسر عسكر موجه الجرار ، وترينا العجب بفتح حصون لججه بالنار ،^(٢) ثم يعقب على ذلك بذكر الأمير حلیم باشا صاحب اليد عليه « كيف جهلت الشمس طالعة ، وخفيت عنك أنوار الأمانة ساطعة ، أما سمعت بأمر الأمراء وسيد الوزراء جناب أفندينا البرنس حلیم باشا ، ثم يذكر شعور المصريين نحو الأمير حلیم » ووجدتهم أرق الناس طبعاً — يتمصد المصريين — وذاكرتهم فى سيرة ولّى النعم حلیم باشا فأنشوا عليه بأسرهم ، ثم يحمل على اسماعيل حملة قاسية فى أبيات شعرية عنيفة صارمة لاذعة ، لا نستطيع أن نتخيل قانوناً يسمح بنشرها وتداولها بين الناس ، هذا إلى أنها — مهما قيل فى حق اسماعيل — ما نظنه يستحق هذا كله الذى جاء به كاتبنا فى مقامته المصرية التى نشرها فى النظارات المصرية .

ومن محاوراته الشديدة اللهجة المحاورة التى جاءت « بين الواد المرق ووزيره المشخلع ، وكتلك المحاورة التى جاءت بعنوان : « زمزم المسكينة » ، وهى « حادثة تاريخية حصلت بمصر القاهرة فى عصر الواد الأهبل ووزيره الديك الرومى »^(٣) ، وهى محاورة ذات حوادث بين زمزم بائعة العيش وبين « ديوس أغا قواص تحصيلات الضرائب » ، فيها سخرية من صلاة الخديو توفيق فى مسجد الحسين لأن « اللى يمشى تحت حكم القناصل لا تجوز له صلاة » ، ويصور الكاتب قسوة الضرائب فى ذلك الوقت وكيف أن « ديوس أغا ،

(١) العدد الأول من النظارات المصرية ص ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٨

(٢) عدد ١٥ يناير سنة ١٨٨٠ ص ٢

(٣) العدد الأول ص ١٠ من النظارات المصرية .

طالب زمزم بضريبة السوق فعجزت عن دفعها فبقر بطن ابنها فإذا شكته إلى المأمور قال لها هذا : « اكتبى عرضحال وحطى الرسم وقدميه نشوف الحق مع مين » ، ثم تمضى القضية في فصولها الثلاثة على غرار واحد من فحش القول ثم ينتهى الفصل الثالث برجاء زمزم لأحد القناصل — وكان موجوداً بمكتب المأمور — أن يتدخل في أمرها ، فإذا أراد الكاتب أن يصور تدخل القناصل وحكمهم للبلاد أجرى لسان المأمور بشكر القنصل وتنفيذ أوامره بقوله : « تره ييان يامسيو سمعاً وطاعة » .

ولا يخلو عدد من أعداد النظارات المصرية من صورة أو صورتين كاريكاتوريتين فيها حملة على توفيق وعلى وزرائه ، وكانت حملتها منصبة دائماً على الخديو والانجليز معاً ، كما كانت تصور فرنسا بصورة الخنون على مصر فقد جاء في إحدى الأعداد صورة لبتمرة^(١) يحلبها رئيس الوزراء ، ويلح بمثل إنجلترا في مصر على حلبها مرة ومرة حتى أخذت الشفقة قنصل فرنسا فيتدخل مشفقاً على هذه البتمرة — يقصد مصر — من الإسراف في حلبها ، وهو هنا يمالئ فرنسا التي أضافته وأحسننت وفادته حتى إنه كان متخذاً لجريدته شعاراً « تعيش المساواة والأخاء والحرية » ، وهو الشعار الذى أثر عن الفرنسيين في القرن الماضى .

جريدة أبو صفارة

وهى « جريدة هزلية أسبوعية لانبساط الشبان المصرية يحفظهم رب البرية من المظالم الفرعونية منشئها حب الاستقلال والحرية »^(٢) ، وتمتاز صورها الكاريكاتورية بأنها أصبحت نصف صفحة فحش وأصبح النصف

(١) عدد ٧ ص ١٦ سنة ١٨٨٠

(٢) ٥ يونيو سنة ١٨٨٠

الباقى من الصفحة للموضوعات المختلفة ، وهى من أربع صفحات كغيرها من جرائد يعقوب بن صنوع . وقد لاحظنا ونحن نبحت جريدة أبى صفارة أن المحرر سى نفسه أحياناً بأبى غدارة ، ولا تزال الحملة على الحديو مستمرة ، ولكنها أخف كثيراً من السنوات السابقة ، بيد أنها بدأت تشتد على توفيق ورياض باشا ، وقد دأب الكاتب على معارضة أحمد فارس الشدياق محرر (الجوائب) بالآستانة والسخرية منه والحملة عليه حملات قاسية متصلة ، وكان مصدر الخصومة بين الصحفيين الكبيرين وقوف الشدياق إلى جانب توفيق والدفاع عنه وعن وزيره المذكور .

وتحتوى هذه السنة على ثلاثة أعداد فقط بتاريخ يونيو سنة ١٨٨٠ ، وقد ظهر فى هذه الأعداد شيء جديد هو (مراسلات الجهات) ، وهى أخبار جاءت إليه من مصر ، وأخذ ينشرها تباعاً ، ومنها كتاب أرسل إليه من أحد عمد أسسيوط ، وفى أكبر الظن أن باب مراسلات الخارج من صنع محرر الجريدة نفسه ، لأنها من روحه وأسلوبه ، وهذه الأعداد التى احتوى عليها هذا العام استفاضت بمقالات ثلاث فى لغة دارجة ، غير أن الملاحظ على هذه الأعداد الثلاثة خلوها من الروح الخفيف الذى صدر عن قلم المحرر فى معظم صحفه ومقالاته .

جريدة أبوزمارة

وقد عدنا إلى صحيفة أخرى من صحفه الكثر ، أى صحيفة (أبوزمارة) فدلنا الأعداد القليلة التى عثرنا عليها ، وهى تبدأ فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٠ ، ويتهى العدد الثالث منها فى ٢٧ أغسطس من نفس السنة ، وهى السنة الرابعة من حياة جرائده ، دلنا على حرارة الكاتب وعناده ، وقد صدرت (أبوزمارة) فى نفس عدد الصفحات التى لاحظناها فى جرائده الأخرى ، وفى نفس

حجمها المعروف . ويذكر (أبوزمارة) في صدر العدد الأول أن ناظر الخارجية المصرية مصطفى فهمى استطاع أن يصادر أعداد جريدته (أبى صفارة) ، وحمل عليه حملة قاسية بهجوه المعروف البذى ، وملاً في هذا الهجو صفحات المجلة الأربع ، أما العددان الآخران فقد حمل فيهما على رياض باشا كما هي عادته ، وامتازت بنقده العنيف لتصرف الحكومة في إعطائها امتياز الورق والخبر (لوازم المالية) إلى أحد الأجانب بعد أن رسا عطاؤه على أحد المواطنين ، وفي هذا الموضوع نرى جديداً لم تكن الجريدة تتجه إليه في مقالاتها وموضوعاتها ، فقد كانت جميعا حملات متوالية دون تحديد ، وفي موضوعات عامة كالظلم والحرية ، ومن أمتع ما رأينا الصورة المنشورة في العدد الثانى من هذه الأعداد الثلاثة وهى تصور القاء الفلاحين والضباط للتماسيح فى النيل «معاينة حبهم للحرية» وهذه الصورة من أروع الصور اتقاناً من حيث رسمها وتمتاز بالجمال الفنى وإن امتازت بشيء من المبالغة

مراجعة الحاوى

« الحاوى السكاوى الذى يطلع من البحر الداوى عجائب النكت للسكسلان والغاوى ويرمى الغشاش فى الجب الهاوى ، كذلك جاء فى رأس العدد الأول^(١) وهى أربعة أعداد فحسب الثانى منها فى ١٨ فبراير والثالث فى ١١ مارس والرابع فى ٢٥ مارس ، وهى الأعداد الخاصة بالستة الخامسة من جرائد أبى نظارة . وأظهر ما فى هذه الأعداد الأربعة هذه الصور التى انتشرت فى الصفحات وملأتها ، ومن أطرفها رسم صدرت به وهو يصور البوليس المصرى يستخرج مجلة (الحاوى) من عمامة الفلاح ، ورسم ثان للفلاح وهو يدفع ثمنها سراً لبائع الصحف ويتناول عدد الحاوى منه ، وفى الصفحة الأخيرة من كل عدد

رسم الكاتب صورة ترمز لحالة من الحالات التي عليها مصر ، كتخليه المصريين يرفعون البرنس حلياً إلى قمة الهرم يعنى بذلك رغبة المصريين في تتويجه خديوياً لمصر ، كما تخيل الضباط المصريين وهم يهاجمون قصر الخديو .^(١)

أبو نضارة

« لسان حال الأمة المصرية الحرة ، كما جاء برأس الأعداد الخمسة عشر من السنة الخامسة لجرائده وقد عاد أسلوبه هنا إلى شدته الأولى بعد نفيه ، في ألفاظه التي يخجل الإنسان من إذاعتها بين الناس مهما تهاون قوانين المطبوعات وتفسح صدرها لخصومة الناس ، على أن صورته الكاريكاتورية في هذا العام بلغت أسمى ما يمكن لمصور من الفن والجمال ومن أرقها صورة « مجلس الزار »^(٢) للبحث عن حقيقة موضوع محبة الآلهة للحليم باشا .

وتمتاز مقالات « أبي نضارة » بعودة الأسلوب العربي والمقالات الأدبية كما جاء بالعديدين السادس والسابع ٨ يوليو و ٥ أغسطس سنة ١٨٨١ تحت عنوان الصيحة الأولى والصيحة الثانية ، وهي مقالات لإيقاظ المصريين وإلفات نظرهم إلى حقوقهم وتحذيرهم من ضياع استقلالهم ، قال في إحداها : « يا أهل مصر ، إن له غاية لايزال يتربصها ، وقد نفخ الشيطان في أنفه حب الاستقلال ، فهو يسعى بكم إلى ما يروم ، وإنما يروم استبدال التبعية العثمانية بالكلمة البريتانية تحت عنوان الاستقلال ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ! أهل مصر : انتبهوا فقد طال النوم ولاحت تباشير الصباح ، وتدبروا ما يقال لكم في هذا اليوم فإن الجدد والمزاح مزاح »^(٣).

(١) العدد الثاني ١٨ فبراير سنة ١٨٨١

(٢) العدد السابع

(٣) ص ٢ عدد ٧ سنة خامسة :

وقد حققت الأيام ما قال في انتقال مصر إلى التبعية البريطانية وهي ثمين لنا إلى أى مدى كان الرجل بعيد النظر ، صادق الحس فى ألاعب السياسة الانجليزية، وقد طالت هذه الصيحات حتى اضطر المحرر إلى زيادة عدد الصفحات فبلغت أحياناً ثمانى صفحات^(١) . وبدأت الجريدة من العدد الحادى عشر إلى العدد الخامس عشر تكتب بخط مختلف الأيادى وكانت هذه الخطوط لرداءتها لا تقرأ فيما عدا الأعداد الثلاثة الأخيرة .

واستمرت السنة السادسة من جرائده تحمل هذا الإسم ، اسم جريدة (أبو نضارة) حتى العدد السابع وهي كمعظم مجلاته التى شاهدناها فى السنوات الماضية ، تحمل موضوعات سريعة على نمط واحد لا يتغير ، تستغرقها كلها اللغة العامية الدارجة ، بيد أن الصور الكاريكاتورية كثرت بشكل واضح فى معظم الصفحات ، وكل ما يكتب تحت هذه الصور يترجم إلى اللغة الفرنسية وسميت الجريدة من العدد الثامن إلى العدد الثالث عشر « أبو نظارة زرقا ، لسان حال الأمة المصرية الحرة . أما العدد الرابع عشر فاسمه « أبو نضارة ، فقط ، وفى أسنفل الإسم شعاره « مصر للبصريين » ثم عاد اسمها « أبو نضارة زرقا ، لسان حال الأمة المصرية الحرة ، وهذه السنة كلها مطبوعة على الحجر والخط العربى فى أناملها ردىء ، وعليها صورة لأبى الهول بعويناته ، وبدأت من عددها الثامن حتى العدد السادس عشر تترجم ما نشرته بالعربية إلى اللغة الفرنسية بخط جميل واضح استغرق صفحتين من الأربع صفحات فى أغلب هذه الأعداد ليمتد الرأى العام الفرنسى مدى تدخل الدول الأوربية لنصرة الخديو على شعبه ، وخاصة الانجليز وموقفهم من المصريين الوطنيين ، كما ظهر لنا الأسلوب العربى النصيح فى بضعة أعداد من أعداد المجلة المختلفة .

واحتفظت جريدته بهذا الإسم ، اسم « أبو نضارة » فى السنة الحادية عشر

(١) راجع عدد ٦ و ٧ و ٨ سنة خامسة .

والثالثة عشر ، والرابعة عشر ، والسادسة والعشرين ، وفي بعضها امتاز غلافها بسمكه وجماله ^(١) ، كالسنة الحادية عشر التى وجدنا منها اثنى عشر عدداً فى دار الكتب المصرىة ، ويمتاز العدد الخامس من السنة الثالثة عشر بتحية رفعها المحرر « إلى المحترم الشريف مسير كارنو رئيس جمهورىة فرنسا بمناسبة معرض فرنسا سنة ١٨٨٩ يقدم الشيخ أبو نضارة قطعة أدبية بثمان لغات ، كما كتب فيه مقالة أخرى تحية للذكرى المئوية للثورة الفرنسىة ، وتحتوى هذه السنة على ثلاثة أعداد فحسب ونصفها باللغة الفرنسىة ، وإن لم تظهر جيداً صورها وكتابتها بهذه اللغة ، وقد استمرت « أبو نضارة » فى السنة الرابعة عشر من جرائده على الطريقة التى وضخناها وتحتوى على ثلاثة أعداد فقط فى نفس الأسلوب والطريقة عينها وباللغتين العربىة والفرنسىة ، غير أن الحملة على الإنجليز اشتدت عنفاً وقسوة ، واحتوت السنة السادسة والعشرون من جريدة « أبو نضارة » على عددین فقط بدار الكتب المصرىة ، غير أن الموضوعات العربىة ترجمت مختصرة فى صفحة واحدة لا غير .

جريدة التودد

هى فى حجم أكبر قليلاً طولا وعرضا من أعداد السنوات السابقة ، فى أربع صفحات على ورق مصقول جميل ، وخرجت صورها بديعة بألوان مختلفة ، صدرت فى مارس ١٩٠٢ ، وسميت التودد إشارة إلى تودد الإنجليز إلى المصريين ، كما استغرقت صفحاتها الحملة على حرب الترנסفال ، فازدحمت بالمحاضرات التى ألقاها أبو نضارة ، كما رأينا كثيراً من الأخبار الخارجىة هنا وهناك ، وكتابتها العربىة قبيحة بعكس الكتابه الفرنسىة فإنها غاية فى جمال الحروف والطبع .

جريدة المنصف

وهي « جريدة سياسية . أدبية . تجارية » كما جاء في جانب الجريدة الأيمن، وكانت حملتها شديدة جداً على الإنجليز في حرب البوير، وأخذت تنعى عليهم أفعالهم التي خلعت من الإنسانية والمروءة، وتمجد في بطولة أهل البوير، ولم يجد عليها جديد بل جرت شكلاً وموضوعاً على ما جرت عليه جريدة التودد، على أنه أضيفت إليها الأخبار العلمية باللغة الفرنسية، كما جاء في حديثها عن تقدم التعليم في تركيا بالعدد الأول.

ويلاحظ على صحف يعقوب بن رافائيل أنها خلعت من الإعلانات التجارية وإن زعم في بعضها أنها صحيفة تجارية، إلا ما كان منها متصلاً بعمله الصحفي، فكان يعلن بين الفينة والفينة عن استعداد المجلة « لنشر النبهة المفيدة والنادرة اللطيفة — بأى معنى كانت — التي تأتينا من أصحابها بتونس وسورية والعراق والجزائر والهند وسائر البلاد العربية »^(١)

* * *

هذه خلاصة لصحف صنوع وجهاده وكفاحه، وتحليل لأول أسلوب عرفته مصر في هذه الناحية، وإليه يرجع الفضل في وجود الصحف الهزلية والتصوير الكاريكاتورى الذى عرفته مصر بعد خمسين عاماً من بداية الرجل في عمله الصحفي. وتكاد تكون صحفه سلسلة متصلة الحلقات، لم تؤثر في قارئها كثرة الأعداد الضائعة منها، بل إن طابعها وروحها متصلين في كل عدد، بل في كل سطر من سطورها؛ وقد كتب الرجل بذلك صحيفته بين أعلام الصحافة العربية، تلك الصحيفة التي وضعته في مكان رفيع بين صحفي الشرق الأدنى على اختلاف مذاهبهم السياسية والاجتماعية والدينية.

محمد عبده

لم يكن الشيخ محمد عبده إماماً في مسائل القضاء والدين فحسب ، بل كان إماماً في كثير من وظائف الحياة الرفيعة ، وكان يراه بعض معاصريه سابقاً لزمنه ، وكانوا يعتبرونه — بالرغم من عمامته — مقارناً ومشابهاً لكثير من فلاسفة الفرنجة وأصحاب الرأي فيهم .

وإذا كان شيخنا إماماً في الأزهر أو في مجلس شورى القوانين أو في وظيفة الافتاء ، فهو أيضاً إمام له قدره وخطره في تاريخ الصحافة المصرية ، ويؤثر عن نشاطه أنه كان من أحب الناس إلى جمال الدين الأفغانى الفيلسوف المعروف ، وأنه كان تلميذه المحبب إلى نفسه القريب إلى قلبه ، وأنه لم يفوت جلسة من جلسات الأفغانى إذا حضر أو ناقش ، وأن شيخنا كان قادراً على فهم ما يقوله أستاذه الأفغانى ، فتولى كتابة ملخصات لمحاضرات أستاذه في صحف ذلك العصر ، وقد عرفه قراء الصحف في هذه الناحية من النشاط الفكرى عن طريق جريدة (مصر) سنة ١٨٧٩ لصاحبها أديب إسحق وكانت تلك الصحيفة ميداناً لأفكار الأفغانى ومريديه في مدينة الإسكندرية ، وقد قدم الشيخ محمد عبده لهذه الملخصات بقوله : « من الواجب قياماً بالخدمة الإنسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللائقة بها ، وأنشر طيب وفدها في صحف الجرنالات لتعم الفائدة والله ولى التوفيق » ، وقال مقدماً للموضوع آخر من الموضوعات التى حاضر فيها الأفغانى عن فلسفة التربية ، « ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية تعميماً للفوائد ، وبياناً لما انطوى عليه من حسن المقاصد ... »^(١) وهو ينشر لنا ذلك كما كان

(١) راجع جريدة مصر شهر يونيه سنة ١٨٧٩

يصنع طلاب العلم المجتهدون مع أساتذتهم في أوروبا في مطالع القرن التاسع عشر^(١).

على أن الشيخ محمد عبده كان كاتباً معروفاً قبل تلخيصه لمحاضرات الأفغانى ونشرها ، إذ بدأ نشاطه الصحفي حين عرفت الحياة الصحفية جريدة الأهرام سنة ١٨٧٦ ، فقد نشرت له هذه الصحيفة في سنتها الأولى بضع مقالات مهرها بأمضائه ، وقدمت له الجريدة مقدمة طيبة حقاً تنبئ عن أمل عريض في هذا الكاتب الشاب^(٢) ، وكانت أولى مقالاته تحية للأهرام وصاحبها ، ثم فتحت الصحيفة صدرها للكاتب الناشئ^(٣) ، فنشر موضوعاً بديعاً عن « الكتابة والقلم »^(٤) ، ثم عقب على ذلك بنشر موضوع آخر عن : « المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني »^(٥) ، وهو في هذه المقالات المتتابعة صحفي مبتدئ^(٦) وهاو من هواة الكتابة والتحرير ، ولكنه سجاع كثير الألفاظ الغريبة والجل صعبة التراكيب ، وإن كانت معانيه جديدة كل الجدة تعان عن عقل راجح وفكر منطلق لا يخضع لعرف أو ينزل عند تقليد ، فإن أزهرياً في عصره ليخرجن عن قواعد المؤلف بشورته على كل متعارف إذ تصدر عنه آراء في مصر القديمة أيام الفراعنة ، فيها تمجيد لعظمتها ودعوة صريحة إلى الاتصال بها ووصلها بتاريخنا الحديث ، والجيل لا يقر الاتجاه ولا يرضى أن تأخذ مصر عن الوثنيين الفراعنة أى تاريخ ...

فهو إذن أديب معروف في زمن ندرت فيه الأقلام ، أديب يتميز أدبه باتجاه قوى ملحوظ نحو المسائل الاجتماعية ودراساتها ، وقد أعلنت مقالاته

(١) كان يصنع ذلك المستشرق مارسيل مدير مطبعة حلة بونابرت على مصر مع أساتذته حين كان تلميذاً بمحرر صحيفة مدارس المعلمين : راجع « تاريخ الطباعة والصحافة خلال الحملة الفرنسية » للمؤلف وفيه فصل خاص عن مارسيل .

(٢) جريدة الأهرام العدد الصادر في ٢ سبتمبر ١٨٧٦

(٣) جريدة الأهرام العدد الثامن من السنة الأولى ١٨٧٦

(٤) جريدة الأهرام العدد الحادى عشر من السنة الأولى ١٨٧٦

المختلفة عن وجوده فاختاره المشرفون على الوقائع المصرية في سنة ١٨٧٩ ، محرراً ثالثاً بجانب محرريها الأولين الشيخين أحمد عبد الرحيم ومحمد عبد الرحيم وقد بقي سهمه محجوباً في تحرير الوقائع تلك السنة ، وعكف على إعداد تقرير ضخم عن إصلاح الوقائع المصرية توطئة لتقديمه إلى ناظر نظار ذلك العهد رياض باشا ، وقد اهتم رياض باشا بهذا التقرير اهتماماً كبيراً فأمر بتعيين لجنة من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وصاحب التقرير لوضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية ، فوضعت هذه اللائحة وأمضاها الوزير^(١) ثم كافأه على تقريره الممتع بأن عينه رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية ومشرفاً على المطبوعات^(٢) .

وقد صور لنا ذلك كله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في مقال له عن : « دخول جريدة الوقائع المصرية في طرز جديد »^(٣) ، تحدث فيه عن نسبة الحكم إلى البلاد وأثرهم في ضعفها وقوتها ، ثم قال : « ولم يقتصر دولتلو — أى صاحب الدولة رياض باشا — رئيس نظارها على النظر في الكليات ولكن وجه عنايته إلى ترتيب الجزئيات : فشمل نظره إدارة الوقائع المصرية التي أتت عليها أحوار عديدة وتقلبت في أطوار مختلفة مدة مديدة ، وهي في كلها غير ملتفت إليها من أول الأمر ، تتقدمها الجريدة الرسمية الفرنسية^(٤) »

(١) راجع سجل أول وثاني استحقاقات الداخلية والدفترخانة المصرية ومجلس شورى النواب عن سنة ١٨٨١ محفوظات القلعة .

(٢) احتوى قرار نظارة الداخلية إلى ما ذكرنا تعيين المسيو إرنست فوكلن المحرر رئيساً للقلم والمطابع المختصة بنشر الصحف الأفرنجية — راجع الوقائع المصرية عدد ٢٢٧٧ في ١٠ ديسمبر ١٨٨١

(٣) الوقائع المصرية في ٩ أكتوبر ١٨٨٠

(٤) لم تسكن الجريدة التي يتصدها الشيخ محمد عبده رسمية وهي جريدة : Le Moniteur Egyptien ، بل كانت شبه رسمية وهي ليست أول صحيفة شبه رسمية في مصر ، كما أكدت ذلك جميع الكتب والمراجع ، بل كانت هناك جريدة شبه رسمية سبقتها بثلثين عاماً تقريباً بنفس الاسم على عهد محمد علي سنة ١٨٣٣

راجع ذلك في « تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضة الفكرية والاجتماعية » للمؤلف .

بكونها يومية دائمة الظهور تنشر فيها المهمات قصداً وبالذات ولا تدرج في الوقائع إلا عرضاً وبالتبع ولا يخفى ما كان في ذلك من الخط لشأن اللغة العربية وأبنائها الذين هم الوطنيون الحقيقيون ؛ وهم الآحق بالاطلاع على أوامر حكومتهم السامية وأعمالها الرفيعة ، فقد نالت هذه الجريدة على عهد حكومة الخديو الأعظم بتوجيه عناية دولتلو ناظر الداخلية من علو الشأن ما لم تكن تناله من قبل إذ صدر أمر دولته بأن تكون يومية بعد ما نظم لها لائحة تكفل لها أن تكون ذات المركز الأول والمقام الأعلى في بابها ، وأن تسابق الصحف الشهيرة في غزارة المواد المفيدة على نمط تألفه النفس ولا يمججه الطبع ،

وتم للشيخ ما أراد فكان عهد رياسته لتحرير الوقائع المصرية عهداً ذهبياً لها ، إذ اهتمت بها الحكومة لشخصية محررها اهتماماً فائقاً ، وكان هذا الاهتمام خاتم المجهودات التي بذلها المسؤولون في إنهاض الجريدة الرسمية والبلوغ بها إلى مكانها الرفيع من النضج والاستواء ، واستطاعت بذلك أن تؤدي رسالتها كاملة في حياة الدولة والجمهور المصري خاصة والعربي عامة ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن جهد الحكومة كان شاقاً وأملها في نجاح صحيفتها يبدو عليه كثير من الشك ، ذلك أن الوقائع في ذلك الوقت لم تكن وحدها في الميدان الصحفي كما كان الحال في عهد محمد علي وخليفته إبراهيم وعباس ، بل كانت تنافس عشرات الصحف الوطنية الأخرى التي تتحدث عن مثل وآراء جديدة محبة إلى الجماهير وليس في وسع الجريدة الرسمية أن تجاريها في هذه الآراء الحرة المتطرفة ، ومع هذه المنافسة الشديدة استطاعت المجلة الحكومية بشخصية محررها الشيخ محمد عبده أن تعيش وتفوز بشيء كبير من رضا الناس وعطفهم ، ومصدر هذا كله الإعداد الذي أعدته لها الحكومة فقد هيأت لها بضعة من المحررين والموظفين من ذوى الكفاءات والهمم ؛ مثل جودت بك ومحمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ سعد زغلول والشيخ إبراهيم الهلباوي وغيرهم من

المحررين والمبشرين والكتبة والمعاونين والجماعين والفرشين والسعاة^(١) وكانت إدارة الوقائع في عصر اسماعيل تتبع ديوان المدارس في بعض النواحي وتستقل أمورها في نواح أخرى، وبقي هذا النظام معمولاً به حتى ولى شئوننا الشيخ محمد عبده فتنقلها إلى وزارة الداخلية، وتحررت من سلطان مطبعة بولاق، واختصها الرجل بمطبعة الداخلية الجليلة، وقدر بطل المسؤولون بين الوقائع وبين إدارة المطبوعات، فكان الشيخ محمد عبده محرراً للوقائع ورئيساً لقلم المطبوعات والمطابع المختصة بنشر الصحف العربية والتركية، فأدارة الوقائع لم تتخلص من ديوان المدارس فحسب بل تخطت ذلك إلى مركز يسمح لها بالتدخل في كل شيء يمس الحكومة أو نظاراتها المختلفة بما بينهنا الشيخ محمد عبده في برنامج الذي أذاعه في العدد الأول من عهد إشرافه عليها^(٢)

كان الشيخ محمد عبده يحسن اختيار الرجال كما كانت تلك صفة رياض باشا الذي أحسن إلى تاريخ الصحافة باختيار شيخنا محرراً للوقائع، فاختر محمد عبده هذه النخبة المنتقاة من المحررين الذين تستميل الناس أقلامهم، فقد كان الأستاذ الأمام يرى أن إصلاح الوقائع المصرية حادث يتصل بتقديم الشعب ونضجه، وأن اللائحة التي وضعها ورسمها برنامجاً للجريدة «أودعها أحكاماً غريبة في بابها يعجب بها الناظر فيها، خصوصاً إذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو المقلدين للتمدنين، فقد ألزم الشيخ محمد عبده إدارات الحكومة ونظاراتها بنشر أخبارها وحوادثها في الجريدة الرسمية، وقد اقتضى ذلك أن اضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى

(١) راجع في ذلك سجل أول وثاني استحقاقات الداخلية وأقلامها والدفترخانة المصرية ومجلس شورى النواب عن سنة ١٨٨١ بمحفوظات القلعة ومنه نرى أن الشيخ محمد عبده عين براتب شهري ١٥٠٠ قرشا زيدت إلى ٢٠٠٠ قرشا والشيخ عبدالكريم والشيخ سعد زغلول زعيم مصر في القرن الحالى تقاضى كل منهما ٨٠٠ قرشا وبرايم الهلباوى المحامى المعروف فيما بعد تقاضى ٥٠٠ قرشا زيدت إلى ٨٠٠ قرشا بعد عدة شكاوى

(٢) راجع الوقائع المصرية في ٩ أكتوبر ١٨٨٠

المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديريات كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير في مصالح الحكومة ، ثم استغل شيخنا مكانه في إدارة المطبوعات فلفت نظر الصحف الى تحريرها وتحسين أسلوبها وإلا أنذرت ، ولبت الصحف دعوته شأنها شأن الدواوين فانصلح تحريرها وتطورت أساليبها وتهدبت ألفاظها ، وتمت في البلاد نهضة أدبية ، وشهدت أقلاماً حديدية ، وتسابق الأدباء إلى التحرير كما تسابق المواطنون إلى القراءة وتعارف الكاتب بالقارئ على البعد ، وخلق في الفئة المتعلمة رأى عام وتيارات فكرية لم تكن معهودة من قبل ، وكان هذا الموقف الحر الصريح الذي تمتعت به الوقائع في عهد الأستاذ الإمام من شأنه أن يشجع كل أمرى على أن يسير في طريق الكمال والمنافسة في العمل الصالح ، ولم يبق عامل أو رئيس مصلحة أو ناظر إلا رغب أشد الرغبة في أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ، ويخشى أن تكون له سوءة فتبدو وتسجلها الجريدة بنفثة من نفثاتها

وفي الحق إن الوقائع الرسمية لعبت دوراً خطيراً في الحياة المصرية في عهد محمد عبده إذ بادر صحفيينا إلى توسيع ميدان نفوذها فكان ينقد ما كان يراه قميناً بالنقد فيما يقدم إليه من تقارير المصالح وأحكام المحاكم ، ولم يكن عنده متمصراً على الشكل بل كان يتناول أعمال المصالح المختلفة وقراراتها ، وقد خلق هذا الشبر والنقد في الموظفين اهتماماً صادقاً فأدى ذلك كله إلى إصلاح أعمال الحكومة ومصالحها شيئاً فشيئاً ، ولم يكن نشاطها أمراً محصوراً في الرقابة أو نشر الأخبار فحسب بل إنها مدت أنفها إلى كل شيء ، وكانت قاسية في بعض ملاحظاتها ، عنيفة في آرائها فقد دعت إلى إصلاح التعليم وانتقدت نظمه ، وصورت ما فيها من عجز وقصور وحملت على نظارة المعارف حملة شعواء أقضت مضاجعها حتى استاء ناظر المعارف استياء شديداً واعتبر ذلك افتئاتاً على حقوقه ، ولما كنّا مضت في حملتها حتى أقربت الحكومة وجهه

نظر الكاتب ، وشكلت المجلس الأعلى للتعليم في ٣١ مارس سنة ١٨٨١ وحدث ، من سلطان الوزير ، وأصبح منفذاً فحسب ، بل إن الحكومة كانت أكثر سخاء مما قدرت الجريدة ومحررها فاختارت الشيخ محمد عبده بين أعضاء المجلس وقد ضم الأستاذ الإمام إليه نخبة من تلامذته ومريديه ليعاونوه على إصدارها وتحقيق أغراضه فيها ؛ ومن تلامذته المعروفين الشيخ عبد الكريم سليمان الذي كان من أحب الشبان إلى الأفغاني ومن أخلصهم للشيخ محمد عبده ، فقد لازمه صديقاً وتلميذاً وورث سليمان أستاذه وصديقه في رئاسة التحرير حين تم الاحتلال ، ومن تلامذته في الوقائع المحبين إليه الشيخ سعد زغلول الذي أضحي في القرن العشرين قائد الحركة الوطنية في مصر ، وكانت صلته بالأستاذ الإمام من أقوى الصلات التي تقوم بين التلميذ وأستاذه ، وقد استفاد سعد من هذه الصلات علماً وعملاً فشب كاتباً وأديباً وسياسياً فيما بعد وقد تمرن على الكتابة في المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، واطلع لصلته بالوقائع ومحررها على شئون الحكومة وتدريب عملياً فترة من الزمن تحت إشراف الشيخ وملاحظته ، وكذلك كان من تلامذة الشيخ محمد عبده الشيخ إبراهيم الهلباوى صديق سعد زغلول ومن أكبر محامى مصر فيما بعد ، اختاره الشيخ لمساعدته في تحرير الوقائع ، وكان من أقدر زملائه المحدثين في التحرير والإنشاء ، ومن أهم ما يعرف عن أصحاب هذه المدرسة أنهم جميعاً ، أستاذاً وطلاباً ، كانوا أصحاب رأى في البلاد أثناء عملهم في الوقائع أو بعد مجاوزتهم هذا الدور من الحياة .

وقد اتجه الأستاذ الإمام في تحرير الوقائع إلى المسائل الاجتماعية فعرض لها بالنقد والتحليل ، وكانت له فيها جولات موفقة شغلت الرأى العام ، وأنشأ قسماً أديباً مرن فيه تلاميذه وفتح صدره لمراسلين من القراء من شتى البلاد ، بيد أن جل مقالاته كانت نقداً لحياتنا الاجتماعية في ذلك العهد ، وهي إن ظهرت لنا موضوعات عادية اليوم إلا أنها في زمانها كانت شيئاً

جديدا مبتكرا في تاريخ الإنشاء والتحرير في الصحف عامة وفي الوقائع المصرية خاصة ؛ وهو في مقالاته لم يتكلف السجع أو يجرى وراء حشو اللفظ الذي يعجب العصر ويرضيه ، ومصدر هذا فيما نعتقد كتاباته اليومية التي تعز لكثرتها الأسجاع ؛ لذلك كان أسلوبه هادئا فيه من البساطة والدعة ما يسهل على القارئ فهمه ، وكانت مقالاته فضلا عن هذا صورة لحياة الأمة ، فيها تحليل لا غلو فيه ولا مبالغة ، فهو في ذلك أديب واقعي ، وقد هيا صفحات الجريدة للحوار والنقد ، ونقد الحاكم قبل المحكوم ، وبين مواطن الذلل ومكان الضعف دون مواربة أو مجاملة ، وهو بعد في إدارة المطبوعات قد حرر الصحف من قيود الماضي وأعانها في رسالتها الخيرية ، وهداها الى الأساليب الصحفية القمينة بكرامة المهنة والتي لا تتجاوز حدود الاعتدال

وللشيخ مقالات شتى في الوقائع المصرية بعضها مسلسل كمقالة « المعارف » التي نشرها في ثلاثة أعداد متتالية ^(١) وفيها ينقد نظارة المعارف التي تأمر بفتح مدرسة ليلية لتعليم السكبار ثم تشترط لمن يلتحق بها أن يكون ملها بمبادئ الرياضيات والطبيعيات وآداب اللغة الفرنسية التي ستكون لغة الدراسة اوله متمالات أخرى في « وخامة الرشوة » ثم في « العفة ولوازمها » ثم في « القوة والقانون » و « ما أكثر النول وما أقل العمل » ثم طالعنا بتمالات أخرى عنيفة في نقد حياتنا الاجتماعية بعنوان « منتدياتنا العمومية وأحاديثها » ^(٢) تحدث فيها عن العرب في الإسلام وحديثهم شعرا ونثرا ، وأن هذا الحديث من أهم خصائصه أن يكون متصلا اتصالا وثيقة بالحرب والنزال والمفاخرة بهما ، وأن هذه الأحاديث القوية التي شغلت حياة العرب أخذت تضمحل حين لحق مجالسهم ترف الحديث عن النعيم والحب والعشق و لهجت شعراؤهم بأوصاف النزل بعد الحماس ، وبنعت الحاجبين والخضر بعد الإسهاب

(١) الوقائع المصرية في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٠ والمحدثين التالين

(٢) الوقائع المصرية في ٩ فبراير ١٨٨١

في وصف القوس والوتر ، ثم عقب على حديث العرب بحديث اليونان أمة العلوم والعرفان ، ثم انتقل إلى حياة الأوروبيين الذين لا تخلو مجالسهم من مفيد في نواحي العلم والفن ، أما نحن المصريين « فتعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمر والمسكرات ، يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان ، ويصرفون ثلثي الليل على قهاوين ، وفي ذلك يتسابقون ويتخاصمون حيث أن كلا منهم يفضل مألوفه من ذلك على مألوفات أصحابه ، ولا يروق لهم الحديث إلا إذا انتقلوا إلى القذف في شرف من بينه وبينهم جامعة ديوانية أو علاقة مجاورة منزلية . . . يتبارون في ميدان البذاء ، واستحضار كل ما يجع وخبث من الألفاظ وهو المسمى عندهم (تنكيتا) فقسموا الألفاظ العرفية أبواباً وفصولاً حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع ،

ثم يصور الصحفي الأديب مجالس الكبراء من أهل المدن ويقول عما يدور فيها « إنها إن اتفق وتجردت عن الحديث في منكر فهي لا تخلو عن حشو فإنه على الأقل لابد أن يتشرف المجلس ولو زمناً قليلاً بحلول الغيبة أو النعيمة المرافقتين لنا ،

وهذه إحدى المقالات الممتعة التي قرأناها للأستاذ الأمام حين كان رئيساً لتحرير الوقائع المصرية ، وقد نشرنا طرفاً منها لنضرب المثل لموضوعاته التي طرق فيها حياتنا الاجتماعية وفيها كما رأينا إمتاع سواء في مقدمة المقالة أو في تحليلها ، وكذلك في لفتات ذهنه ودقة ملاحظته وصدقته في الرواية ، وتصويره لبعض أمراضنا ، وكذلك امتاز هذا المقال الذي نشرنا جزءاً منه بأسلوبه الرصين الذي خلا من التعقد وتبرأ من السجع الممل ، وهو إلى ذلك يسجل حقيقة في طبائعنا ، وهو فوق ذلك كله موضوع من الموضوعات التي قلبا كان يطرقها كاتب من كتاب ذلك العصر . وقد كان للشيخ محمد عبده غير هذه الفصول الاجتماعية الممتعة أخرى علمية دقيقة كموضوع « العلم وتأثيره في

الأرادة والاختيار^(١) وهي تبحث في سلطة الفكر والتعقل ومدى سلطان الإرادة عليهما ، وقد استغرقت المقالة مكاناً كبيراً من صفحات الجريدة وقصد بها الكاتب خاصّة الكتاب من أصل الاختصاص

وجملة القول في تاريخ الوقائع المصرية في عهد الأستاذ الإمام أنه كان كل شيء فيها ، وأنه كاتبها ومحررها ، ولا يطبع في صفحاتها خبر أو موضوع دون أن يبت هو فيه ويحيزه بنفسه ، ونحن نرجح هذا كله من روح الجريدة وميولها التي كانت تتفق مع ميوله وروحه

ثم تقع الثورة العراقية ويتم الاحتلال ، وينفي الشيخ إلى سورية فيدعوه أستاذه وصديقه الأفغانى إلى لقائه في باريس ، وكان ذلك في سنة ١٨٨٤ ، وفي باريس داربخلدهما لإصدار جريدة « العروة الوثقى » وتولى الأستاذ الإمام تحريرها ، ويحدثنا محررها أنها « ستأتى في خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات والاحتراس من غوائل ما هوات »^(٢) وسياسة الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى سياسة عالية فقد أبى إلا في القليل النادر ، أن يمس شخصاً من الأشخاص مهما يكن بينهما من مودة أو سخيمة ، وهو إن اضطر إلى مهاجمة خصم من خصومه لا يسف إسفاف يعقوب بن صنوع ، بل يخاصم في أسلوب عف ومنطق سليم ، لذلك كانت العروة الوثقى إرثاً أديباً لمصر والشرق لا ينكر فضله ، وإن ما كتبه الإمام فيها يعتبر في ذمة التاريخ أروع ما كتب من موضوع ، وهو هنا يبلغ الذروة في نضج تفكيره واستواء بيانه وإخلاصه في الدفاع وصدق عاطفته وسمو معانيه ؛ كما تميز

(١) الوقائع المصرية في ٣ سبتمبر ١٨٨١

(٢) العروة الوثقى - افتتاحية العدد الاول ١٨٨٤

بالموضوعات الاجتماعية والسياسية الرفيعة ، وقد أثر الزمان والمكان في الكاتب العظيم فكان إنتاجه الصحفي فيها خير ما عرف عنه من إنتاج .

وقد كان كل ما يرجوه صحفيينا في عروته الوثقى إعادة الحكم الإسلامي والنظم الدينية إلى ما كانت عليه من الطهارة والعدل والكمال في عصورها الأولى بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين ، وما تقتضيه حالة العصر لمجد الإسلام في أمور الدنيا ، ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار وذله ، ومن أهم أغراضه وأغراض جريدته إنقاذ مصر من الاحتلال ، والسودان من الفوضى ؛ والأستاذ الإمام لا يقصر رسالته على شئون مصر والسودان ، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهيب الضغائن لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفاء والوداد ، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواها لالتهامهم ، ويسمو الشيخ في خصومته ، فالإنجليز عنده أعنف خصومه ، ولكنه يرى أن صداقة الإنجليز أمر لا يكرهه ، بل هو يدعو إليه بالرغم مما بينه وبينهم من جفوة أو عدا ، لأن الإنجليز في اعتباره « أمة طامعة » ، بيد أنها ليست من السوء بحيث لا تجوز معها صداقة ، فإن الإنجليز يراعون طبيعة العمران وتطور الزمان ،^(١).

ثم يعود كاتبنا إلى مصر بعد أن عفا عنه الحديو ، وينزل بنشاطه المعهود إلى شتى ميادين الحياة ، ويبدى من الآراء الدينية والتعاليم الإسلامية ما يضعه خصماً لبعض صحف ذلك العصر وفي مقدمتها جريدتنا « الظاهر » و « الحمار » ، وتؤثر فيه هذه الحملات المتصلة فيقف في الجمعية العمومية مناصر أزميله

(١) تاريخ الأستاذ الإمام - ١ - ص ٣٣١ - ٣٣٢

أمين بك الشمسى فيما ذهب إليه من أن « أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد وقد ملأوا الدنيا سفاهة وتعدياً على الأعراض^(١) وإن كان من رأيهما « أن الجرائد هي مرشد الأمة والحكومة ، والمطبوعات هي ركن من أركان العمران ، ثم يقوم مؤيداً رأى القائلين بسن قانون للمطبوعات يقي الناس هذه الفوضى .

ويدور بخلد الأستاذ الإمام إنشاء صحيفة كبرى يتولى أمرها ويشرف على تحريرها ويمضى في هذا شوطاً لا بأس به ، غير أنه ينصرف فجأة إلى معاضدة تلميذ من تلامذته في تحقيق هذا المشروع ، ويقوم السيد محمد رشيد الرضى بتحقيق رغبة أستاذه ويصدر صحيفة « المنار » وهي صحيفة يذكر لنا صاحبها أن الشيخ محمد عبده فرض شخصيته عليها وقرر ألا تنتمي لحزب من الأحزاب وألا ترد مهاجمة الصحف ، وأنها ينبغي أن تكون أكثر من خدمة الكبراء بل يحسن أن تستخدمهم هي ، وأن الأستاذ الإمام صاحب تسميتها ، وقد روج لها في جميع الأوساط ، حتى عند الخديو نفسه ، وقد أثبت اتجاهها ، وأظهر أسلوبها وأعلنت معانيها أنها كانت بحق صحيفة الشيخ ولسانه .

هذا هو سهم الأستاذ الإمام في تاريخ الصحافة العربية ، وهو سهم لا يقل قدراً أو شرفاً عن سهمه في الوظائف الأخرى التي شغلها بعقله الراجح وذهنه المتمتد ، وحسبه أن كان أستاذاً ومعلماً لبعض قادة الرأي في عصره ، وأنه أحسن في مدرسة الصحافة إلى وطنه فقدم لبلاده خيرة ساستهم وجلة محاميهم وأساطين كتابهم ومعلميهم .

(١) محضر الجمعية العمومية في ٢٦ مارس ١٩٠٢

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١٥ ص ١٠٠٣ - ١٠١٠

خليل سركيس

سنلقى في هذا العرض لأعلام الصحافة العربية مجموعة من الشخصيات اللبنانية الممتازة ، كتبت بجهادها صحيفة رائعة في التاريخ الصحفي للشرق الأدنى ، وقد اختص لبنان دون ولايات الدولة العثمانية الأخرى بنشاط أدبي وصحفي ملحوظين ينافسان بقدر ما كانت عليه مصر في عهد الخديو اسماعيل من تقدم فكري رائع .

ويرى كثير من المؤرخين لهذا النشاط أن لبنان كان أسبق بلاد السلطان وعياً للحياة السياسية حتى إنه كان أسبق الدويلات ثورة على النظم التي فرضتها تركيا ، وكان قيام الصحف بين سكانه مدعاة إلى هذه الثورة ، ولم يستطع كثير من رجال الفكر اللبنانيين أداء رسالتهم الصحفية وسط ضغط الحكومات وقسوتها فهاجروا إلى مصر حيث لقيهم الخديو اسماعيل لقاءً حسناً ، فدلهم في رحابه ، وأعانهم بماله وجاهه ، أما من بقي منهم في لبنان فواحد من اثنين إما أغلق صحفه وطوى قلبه ، أو لاین وساس الأمور بحكمة وروية فاستطاع إلى الحياة الأدبية والصحفية سبيلاً ، ومن هؤلاء خليل سركيس .

ولد صحفينا في قرية من قرى لبنان سنة ١٨٤٢ ، ثم انتقلت أسرته إلى بيروت وهو في الثامنة أو التاسعة من عمره ، والتحق بالمدرسة الأمريكية التي أخذ عنها العلم كثيرون من رجال التعليم في نشأتهم الأولى ، وكان إلى جانب المدرسة مطبعة نخمة للأمريكيين فدفعه حسه في نشأته الأولى إلى التردد على المطبعة ، متطلعا ناظراً إلى هذا الفن الجديد على نفسه ، القريب إلى طبعه ،

فغلبت عنايته بالمطبعة نزعات الشباب عنده فالتحق بها ردحا من الزمن أتمكن فيه هذا الفن ^(١) ثم اتفق مع سليم البستاني في سنة ١٨٦٨ على إنشاء شركة مطبعية سميها مطبعة « المعارف » ثم انفرد بعدئذ بمطبعة خاصة سماها « المطبعة الأدبية » ونال معها امتياز جريدة « لسان الحال » في سنة ١٨٧٧ وهي صحيفة للسياسة والتجارة والعلم والزراعة والصناعة ، وهنا برز صاحبنا واشتهر أمره ولقبه معاصروه بشيخ الصحفيين إذ كان فيها معتدل المزاج ، موالياً لجميع العناصر المختلفة والمذاهب المتباينة ، لم يغلب مذهباً سياسياً أو عقيدة دينية في رسالته الصحفية ، وهي صحيفة نصف أسبوعية ، أخذت تتعدد أيام ظهورها في الأسبوع حتى بلغت مراتب الصحف اليومية الممتازة في سنة ١٨٩٥ ، واحتفظ صاحبها بعدد أسبوعي يصدر منها ، فيه خلاصة لنواحي النشاط الأسبوعي ، ولسان الحال فضل لا ينكر على آداب اللغة العربية ومرادفاتنا ، فقد استعمل خليل سر كيس وأنصاره في تحريرها ترجمة طيبة لسكثير من الكلمات الأجنبية أضافت للغة العربية ثروة لفظية لا تزال تحيا في آدابنا وصحافتنا العربية ، كما جدد المحرر في أساليب الإعلان ، فكانت إعلانات الصحيفة تبرز في صيغ مواتيه مزينة بالرسوم ، ومضت صحيفته قدماً لا يقفها اضطهاد أو يحول دون نشاطها حادث من الحوادث أو نكبة من نكبات الزمان .

ولإذا كان صحيفتنا خليل سر كيس متميزاً بين صحفبي جيله بالعلم في شؤون الطباعة ودقاتها ، فإن له تاريخاً عظيماً في تأليف الشركات الصحفية ، فقد ألف مع شخصيتين صحفيتين عظيمتين شركة لإصدار الصحف ، هما المعلم بطرس البستاني صاحب (الجنان) وابنه سليم البستاني صاحب (الجنة) ، فضم صحيفتهما إلى صحيفته (لسان الحال) ^(٢) ومضى يطبعها جميعاً في مطبعته

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٢٩ وما بعدها

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص ١٠

المسماة المطبعة الأدبية^(١) وكانت وظيفته هنا مديراً لشركة النشر التي ضربت المثل في الشرق العربي، وإن كان كل من الصحف الثلاث مضى يصدر في الأسلوب الذي يراه أصحابها وفي استقلال فصل بين إدارة الشركة وأهداف التحرير

ثم اضطهدت حكومة السلطان صحيفة سركيس سنة ١٨٧٨ ووقفت صدورها أربعة شهور، فلم يحل ذلك الاضطهاد دون نشاطه فأصدر مجلة شهرية سياسية علمية صناعية تاريخية فكاهية سماها «المشكاة» في ست عشرة صفحة، وهي في الواقع صحيفة للأخبار والنبد السياسية وليس فيها روح الفكاهة التي زعمتها أعدادها الأربعة، ولم تعمر المشكاة طويلاً لأن لسان الحال عادت إل نشاطها فانتفى وجودها بجانب أختها الأصلية^(١)

وخليل سركيس هذا ليس عالماً من أعلام الصحافة العربية فحسب، فهو بجانب نشاطه الصحفي في التحرير الجيد والخبر المفيد والرواية الحسنة والأسلوب الرفيع والعبارة المنتقاة، رجل تشوفت نفسه إلى الطباعة واستهوت معظم نشاطه منذ كان صدياً، لذلك كانت صحفه تطبع في مطابعه الخاصة، وهي مطابع تجارية وهي فيما نعلم من أولى المطابع الحرة التي أديرت بالبحار في الشرق الأدنى كله، ومطابعه لا تقوم بطبع الصحف فقط بل تخصص

(١) كانت المطبعة الأدبية التي يملكها خليل سركيس تحتوى في القرن التاسع عشر على مطبعتين تجاريتين ومطبعة يد وأخرى من الحجر. وكان له مسبك لصب الحروف أعان مطابع الشرق العربي الحرة وأمدّها بالحروف، وكانت المسبك مستعداً إلى تلبية جميع الطلبات التي تقدم إليه إذ كان في مقدوره أن يصب في اليوم الواحد مائة وسبعين ألف حرف مختلفة الأشكال والأحجام. وقامت مطبعته بجانب طبع الجرائد بنشر مئات الكتب ودفاتر الأعمال التجارية — راجع في ذلك تاريخ الصحافة العربية لطرزى ج ٢ ص ٣١٠، ٩٦

(٢) راجعنا هذه الصحيفة في مجموعة الكونت فيليب دى طرازى الصحفية في لبنان سنة ١٩٤٣ وهي على قلة أعدادها كانت صحيفة جديرة بالرعاية قينة بالحياة

بعضها لطبع المؤلفات العلمية ، وبعضها للشئون العامة التي تتصل بحياة التجارة وما إليها ، ثم هو من أوائل الشرقيين الذين أنشأوا المسابك لصب الحروف ، واستعملها غيره من رجال العروبة في الشام وغيرها من البلاد ، ويؤثر عنه أنه أدخل في صناعة الحروف العربية صنوفاً مختلفة بعضها دق حتى عز مثاله وبعضها كبر حتى استعمل في كثير من نواحي النشاط المطبعي ، وبذلك نقل المطابع العربية في الشام من أن تكون أسيرة الحرف الأمريكي وحده

وإذا كان خليل سر كيس صحفياً قادراً على أداء رسالته الصحفية من حيث التحرير الجيد والإنشاء البديع ، ومن حيث القدرة على تسقط الخبر وحسن السبك في روايته ، وإذا كان مديراً قادراً لمطبعته وإعياً لشؤون هذه المهنة عارفاً قدر هذا الفن ، فإن صحفينا كان محلاً لثقة أبناء جيله من خيرة الصحفيين ، كان بينهم نقيباً لهم وإن لم يعرف الجيل معنى النقابات الصحفية ، فقد كان يندب لتصفية المشاكل الصحفية وحل الأزمات ، سواء اتصلت هذه المشاكل والأزمات بالصحافة أو بأصحابها ، وكان الرجل يقضى بالعدل فيما يعرض عليه من أمور الصحافة والمشتغلين بها لذلك كان رأيه أو حكمه لا يرد ، وينزل عنده جميع الصحفيين جلّت أقدارهم أو هانت ^(١)

وأنتج مكانه بين زملائه حذباً عليه وعطفاً كبيراً ، حتى إن صحيفته « لسان الحال » كانت زاخرة بأقلام كتاب العصر اللبنانيين حيث حشدهم الرجل لعرض آرائهم وأفكارهم على صفحات جريدته ، وقدم لكثير من المقالات والبحوث بالصور وزينها بالرسوم ووشاها بالنقوش ، فجاءت الجريدة مثلاً يحتذى أسلوباً وإخراجاً ^(٢)

ولم يشهد تاريخ الصحافة العربية صحفياً نكسب في فنه كما نكسب سر كيس ، فقد احترقت مطابعه في سنة ١٨٩٥ كما احترقت مطابع الأهرام في سنة ١٨٨٢

(١) تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص ٢٧

(٢) تاريخ الصحافة العربية لطرازي ج ٢ ص ٣٠

غير أن الأهرام عوضت فيما عوض من خسائر الثورة ، لكن سركيس لم تقعه بمصيبته في مورد رزقه ومهبط وحيه وفنه وغاية نشاطه وجدته عن معاودة العمل ونشر « لسان الحال » ، مفتتحاً ذلك بمقال عن احتراق مؤسسته وهو من خير ما كتب في هذا الباب^(١) ، وقد انتزع هذا المقال إعجاب المتأدين إذ كان كاتبه فيه أديباً مطبوعاً استحق ثناء أصدقائه « اللسان » من قريب أو بعيد و خليل سركيس هذا صحفي متصل الفضل موفور النشاط فهو لا يقصر نشاطه على شئون الطبع والصحافة فيز فيها كأي تاجر ورق وانه الحظ وأسعفته الظروف ، بل يقف الرجل جزءاً كبيراً من حياته ونشاطه على الأعمال التي تفيد أمته ومواطنيه ، فيرى فيه الأكفاء ندا لهم يستحق انتخابه عضواً في مجلس معارف ولايته ورئيساً للجمعية الخيرية الأنجيلية وعضواً في مكتب الصنائع ، ثم يجد سركيس بعامل الشفقة والرحمة أن بعضاً من مواطنيه يقتلهم داء الصدر ولا يرحمهم عطف ولا غداً ولا طب فيدعو القادرين من اللبنانيين إلى تأسيس جمعية ترعى مرضى السل ويتم له ما أراد ويسعف هؤلاء المساكين ، ويسجل صحفيين في تاريخه هذا الفضل ، وهو فضل يذكر لصحافة لبنان لأن رجلاً من رجالها وظف جاهه وصحيفته لأنقاذته استبد بها الفقر والحرمان

و خليل سركيس تختصم من أجله مهنتان ريفيتان ، فالصحافة تدعيه لنفسها وتسعد باعتباره واحداً من رجالها ، والأدب يأبى أن يكون اسمه محسوباً على غيره ، فقد أيد بنشاطه المطبعي صدور حوالى ألف مجلد من صنوف الثقافات الأدبية والعلمية والدينية والزراعية والصناعية ، ونشر من هذه الكتب ما يتجاوز مليوناً ونصف مليون نسخة ، ثم هو يقوم بنفسه على تنقيح كتاب « عنبرة » و « ألف ليلة وليلة » ، وطبعهما في مطبعته وليس في هذا فضل كثير إذا كان القصد التنقيح أو التويب وإنما هو يقصد من استعمال

(١) تاريخ الصحافة العربية - ٢ ص ١٣١ و ١٣٣

ذوقه وفنه في هذه الأصول الأدبية أن يمكن السيدات من قراءتها من غير استحياء ، وفي ذلك من الخير ما سمح لقارئات العربية بالاطلاع على نبعين في الأدب العربي ، وحبب اليهن لونا من الفن الرفيع ، وإن كان التنقيح للأصل يقلل من رواء القطعة الفنية عند الأدباء والمفتنين ، ثم يمضي صحفيينا في نشاطه هذا فيطبع السكتب القديمة كمقدمة ابن خلدون ومقامات الحريري ، ويقدمها لطلاب الثقافة العربية بضمن زهيد يمكن عامة القارئ من الاستزادة بهما ، والاطلاع عليهما ، ويؤلف كتاب « سلاسل القراءة » في ستة أجزاء ، وهو كتاب للمطالعة إذا صح الوصف والعرض ، بيد أنه كتاب حاز قبول الجيل وأنست إليه مدارس الشرق الأدنى ، بل رغب فيه كثيرون من النلاميذ والمطالعين في المهاجر وخارج الشام .

ولا يقف نشاطه الفكري عند اللغة وآدابها تنقيحاً وتأليفاً ، بل يضرب في كثير من فنون الفكر ، فيؤلف للسيدات كتاب « أستاذ الطباخين » وتذكرة الحواتين ، ثم أصدر من قلبه كتاباً اجتماعياً يتصل بعرف الناس وتقليدهم سماه « العادات » وقصده شرح العادة الطيبة والمثل الحسن في المعاملات ؛ ثم ألف بجانب ذلك كتاباً تعنى الأطباء والمحامين والشبان والمراهقين ، ومن أهم كتبه « معجم اللسان » وهو قاموس لأسماء القواد والسفن والأماكن التي ذكرت في أخبار الحرب اليابانية الروسية سنة ١٩٠٤ ثم كان له فضل عظيم على النشاط التجاري والاجتماعي حين أصدر لمواطنيه الروزنامة السورية ، ولم يغفل رحلاته فدونها تباعاً في صحيفته لسان الحال ^(١) .

وقد أجمع معاصرو سركيس على أنه كان صحفياً دمث الخلق عفا القلم واللسان ، موفور الذكاء شديد النشاط ؛ وأثبتت آثاره في صحيفته وكتبه أنه كاتب مجيد سهل العبارة كثير الاستعارات مع ميل إلى الفكاهة والمداعبة ؛ وهو ذو ذوق في اختيار ألفاظه ومعانيه ، قادر على العمل معظم ساعات اليوم ، مثال لصاحب العمل وقودة صالحة لمدير الصحيفة ومحررها .

(١) تاريخ الصحافة العربية ص ٢٠٤ و١٣٤ وما بعدها

شاكِر شَقِير

من خيرة أدباء لبنان الذين عرفهم القرن التاسع عشر؛ ولد سنة ١٨٥٠ في الشويفات ودرس فيها المبادئ الأولية في القراءة والكتابة، ثم التحق بمدرسة الروم الأرثوذكس وكان يتولى إدارتها الدكتور يوسف عرييل فأتقن هنا اللغتين العربية والفرنسية واتصل بجملة من فضلاء العلم والأدب ونال حظاً من دراسة اليونانية وهي طلبية سعى إليها كثيرون من نظرائه أصحاب القلم، ثم انتقل إلى بيروت حيث كان يقيم الشيخ نصيف اليازجي، فتوثقت علاقاته به ودرس عليه فنون الشعر فكان من أروع تلاميذه في القريض وكانت الإشراف في عبارته ميزة له على أقرانه وأنداده في هذه الناحية من البيان^(١).

وقد ضرب شاكر شقير بسهم وافر في ألوان الثقافة المختلفة فهو أديب له قراءات عميقة واطلاع واسع؛ وقد عرف في نشاطه الأول معلماً ومديراً لبعض مدارس لبنان، وله آثار طيبة في تلاميذه الذين نشأهم أحسن تنشئة فغدوا فيما بعد من خيرة أصحاب الفكر في الشام، وكان بجانب أستاذه في المدارس عضواً ذا خطر في «الجمعية العلمية السورية»، وهو واحد من الذين ألفوا دائرة المعارف البستانية، فقد وقف عليها نشاطه عشر سنوات متواليات وعكف في خدمتها على مراجعة دوائر المعارف الأجنبية المختلفة، فزاده ذلك علماً بمختلف العلوم والمعارف، وأكد فيه القدرة على تجويد بعض اللغات الأجنبية التي كان على ثقة من معرفتها من قبل.

(١) لدراسة تاريخ شاكر شقير راجع تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٨، ٤٥،

وكان شقير بجانب عمله الضخم في دائرة المعارف يحرر الفصول الممتعة في مجلة «الجنان»^(١) وذلك أول صلته بالصحافة فيما نعلم، وقد أحس القراء فيها أديبا مشرق العبارة موافق الفكرة، ولم يقصر أدبه على صحيفة واحدة في ذلك الوقت بل وظف قلبه في كثير من الصحف اللبنانية المعاصرة، وكاد مواطنوه يرونه في صحف بلادهم جميعاً؛ ورأت صحيفة «ديوان الفكاهة» أن تستعين به في ترجمة الروايات الفرنسية التي كانت تشر على صفحاتها في كل شهر، وهذه الصحيفة أول مجلة من نوعها في الشرق العربي حيث تخصصت في معظم صفحاتها للروايات والقصص وإن ضمت أحياناً وصفا لبعض الرحلات؛ وكان اختياره وترجمته لما يختار بأسلوبه الرفيع من الأسباب التي حببت المطالعين في «ديوان الفكاهة»، فكانت من أكثر الصحف انتشاراً وأدناها إلى قلوب القراء، ويقول فيها السكونت فيليب دي طرازي «وكان (ديوان الفكاهة) مجموعاً حسن الوضع والترتيب حاوياً من أطايب الروايات على أشهاها ومن أشهر الرحلات على أكثرها فائدة ومن آداب الحكايات والقصص على أدناها مأخذاً وألفها مشرباً وأرقها أسلوباً. وكان بوجه الإجمال لا يتعرض لمذهب ديني ولا يلح لأمر سياسي ولا ينشر إلا ما يوافق طرجه بين أيدي القوم كباراً وصغاراً نساءً ورجالاً». وكان إقبال الناس كبيراً على مطالعة رواياته اللذيذة المنزهة من الشوائب الأدبية التي لا يخلو منها أكثر الروايات المطبوعة في زماننا»^(٢).

(١) كانت الجنان مجلة سياسة أدبية، أسلوبها ركيك وعبارتها عامية في أكثرها وإن كانت موضوعاتها دقيقة عالية، وقد ساهم في تحريرها كثيرون من رجال الحكم والفكر في لبنان، وقد تضمنت صفحاتها الأخيرة كثيراً من الملح والفكاهات أكبر الظن أن كاتبها شاكر شقير لما أثمر عنه في هذه الناحية من التحرير. شاهدنا صورة لها في مجموعة طرازي.

(٢) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٦٦ وقد شاهدنا صورة لهذا الديوان في مجموعة السكونت فيليب دي طرازي بمعرضه في منزله ببيروت سنة ١٩٤٣. (المؤلف)

ويعتبر شاكر شقير من الصحفيين الساخطين لأن حياته الصحفية لم تمض على سجيته ، وهو كاتب أحسن الظن في أساليب الحكم في عصره ، فنشر بعض المقالات العنيفة وأساء ذلك إلى المسؤولين وصادف ظهور آرائه شدة من السلطنة على كل فكرة حرة ورأى غير فطير ، فنشرت إرهابها على الأقلام وحدت من حرية الفكر وعصفت بأصحاب الصحف الذين أبوا أن يمالئوها بغير حق ، فانتقل المترجم إلى القاهرة سنة ١٨٩٥ حيث وصل حياته الصحفية بإنشاء مجلة نصف شهرية سماها « الكنانة » ،

لم تعمّر الكنانة طويلا ، غير أن البذل من أجلها والوفاء في إخراجها أعطانا صورة طيبة عنها ، ولو أن الزمن امتد بصاحبها لكانت من خيرة مجلات الشرق فقد ضمها المقالات العلمية والقصص التمثيلية والحكايات التهذيبية ، وجعل فيها بابا لنقد اللغة ونثر فيها أفانين الشعر من نظمه الرائع وقد لفت الكنانة المتأدبين هنا وهناك بالجهد المبذول في تحريرها وإخراجها ، هذا الجهد الذي أثر في صاحبها فاعتلت صحته ، وبلغت به العلة مبلغا لم يفده فيها هواء مصر فعاد إلى لبنان حيث وافاه الأجل المحتوم في أكتوبر سنة ١٨٩٦

ويبدو من هذا العرض السريع لحياة صحفيينا الكبير أنه كان من رجال الصحافة في نهاية القرن التاسع عشر ؛ وهو من القائلين الذين كانوا أسوة ومثلا في معرفة آداب العرب ولغتهم كما كان حجة في تاريخهم وعلومهم ، وهو بمن ملأوا حياتهم الصحفية بالنشاط الأدبي الخاص ، وتشهد آثاره بأنه مفتن في كل فن ، مشارك في كل علم ، فهو صاحب كتاب « غصن البان » في انتقاد اللغة العربية ، في القرن الماضي وله كتاب « أساليب العرب في صناعة الأنشاء » وكتاب « منتخبات الأشعار » و « مصباح الأفكار في نظم الأشعار » وبدأ المترجم في تأليف معجم في لغة العرب لم يمتد به الأجل لإتمامه ، وقد جمع في مؤلف بعض مقالاته الاجتماعية بعنوان « أطوار الإنسان في أدوار الزمان » وهي مقالات مزج فيها الهزل بالجد ولم تخل من اللفقات البارة والمعاني الرفيعة

والحكم الموازية ، ثم عكف على ترجمة «آثار الأمم» للكتاب الفرنسي (فولني) وهو ناشر ديوان أبي العلاء أكثر من مرة ، ولشقيق غير هذا النشاط الأدبي كثير من الروايات التمثيلية والقصص البديع ما يجلب عن الوصف والحصر ونحن نؤرخ له في هذه العجالة الخاطفة ، غير أن من أهم روايات «أسرار الظلام» والشجاعة الحقيقية ، «وكنيسة الحرش» ، «والصنية الخرساء»^(١)

وقد بز شاكر شقيق كثيرين من أنداده المعاصرين في قرص الشعر ، بدأ هذا النشاط في قصيدة رفعها إلى خديو مصر إسماعيل في مناسبة من المناسبات وقد ألزم في أوائل أبياتها تاريخاً هجرياً لسنة ١٢٨٧ وفي كل عجز تاريخاً مسيحياً لسنة ١٨٧٠ ، وهو شاعر مجود ، غير أن شعره توزع في جميع المعاني وساهم في وصف كثير من المشاعر ، وهى مشاعر تياه بعروبتة مؤمن بأفضالها قال عندما ترجم بعض الحكايات (للافنتين)

من بعد آثارنا في المشرق اشتهرت آثاركم فاستفدناها بلا تعب
من ذاك ماجاء لافنتين من حكم يشف برقعها الهزلى عن أدب
إن كان أبدع في ذا الفن شاعركم فلا يقصر عنه الشاعر العربي
وله إلى جانب ما ذكرنا قصائد شتى لعل أهمها نظمته في مدح الخديو إسماعيل حين قدم إلى سموه امبراطور النمسا وساماً مرصعاً في السنة التالية لافتتاح قنال السويس ، وكان عمر المترجم في ذلك الوقت عشرين عاماً فقال

أدركت بالله مجداً أنت رافعه ال باني ذراه ففى إدراكه رهج
قدمت تعلوياً وج السعد أكرم نس ل رفده منه أكد مصر تبلتهج
وقد ناله كثير من العطف لقاء هذين البيتين وإن كانا أقل ما كتب في
الشعر جودة ، غير أنهما كانا بيتين شجعا على قرص الشعر فجاء فيه بالمعجب
والخطرب بما نشرنا له مثلاً على هذه الصفحات

(١) جاوزت مؤلفات شاكر شقيق الثلاثين مؤلفاً معظمها في القصص سواء كان قصصاً موضوعاً أو مترجماً

ويمتاز صحفيينا الأديب الشاعر بأنه فنان تستهويه كل ناحية من نواحي
الفن الجميل ، فقد شغل أوقات فراغه بدراسة الموسيقى علماً وعملاً حتى جود
فيها وبلغ شأواً غير منكور ، وكانت حياته عبارة عن الصحفي الدارس العالم
حتى أثر عنه أنه كان مثالا للذكاء النادر وسرعة الخاطر بنظم الشعر على مهل
أو نظمه ارتجالاً ، وقد جمع صفاته جميعاً أخوه فارس شقير في مراثيته التي
قال فيها .

وضع التأليف التي خلصت	من غلطة ندرت ومن خلل
وله رسائل كلها غرر	يحيى ترسلها هدى الرسل
وله المقالات التي ذهبت	في كل ناد مذهب المثل
فالشعر مثل النثر يرسله	سهلاً بديعاً غير متجمل
فيصيب فيه وهو مرتجل	وسواه يخطيء غير مرتجل
والنثر مثل الشعر يرصفه	جملاً مرصعة على جمل

يعقوب صبروف

شخصية صحفية لا تزال تحيا في آثارها الحية ، وستمضي في ذمة التاريخ الصحفي علماً من أعلامه ومثلاً من أمثلته المواتية وأسوة من الأسوات التي كانت سباقة في وضع أصول التحرير ومذاهب الفن الصحفي سواء اتصل ذلك بالصحافة الأدبية أو الصحافة السياسية ، ولد صحفيًا في لبنان سنة ١٨٥٢ وكان من أوائل الفرقة المتقدمة التي أتمت دراستها في «المدرسة الكلية السورية» اتصل بالمراسلين الأميركيين ليديرس لهم اللغة العربية ؛ وأعجب به هؤلاء المرسلون فهبأوا لأستاذيته فرصة النضج والاستواء ، وأنشأوا مدرسة عالية في طرابلس الشام تولى هو إدارتها ووضع لها المناهج ، ولم يمض طويلاً في هذه المدرسة بل انتقل بعد عام أستاذاً للعلوم الرياضية والفلسفية الطبيعية في المدرسة الكلية السورية التي نشأته أحسن تلشئة ، وهنا أشبع رغبته كعالم في الرياضة والطبيعة ، وأنتج أمثلة عملية كان هو صاحبها أو صنعها تلاميذه بتوجيهه وإشرافه ، ثم أُرِدِف هذا النشاط بنشاط جديد في الكيمياء فجمع إلى أستاذية الطبيعة والرياضة أستاذية جديدة في هذا العلم الذي أضناه وكاد يذهب ببصره ، وله في هذه النواحي العلمية كتب تفردت بالعمق وتميزت بالقدرة واستحقت ثناء المشتغلين في هذا الباب ، ولم يقصر المترجم نشاطه على العلوم وحدها خلال الإحدى عشر سنة التي درس أثناءها في المدرسة الكلية بل ترجم كثيراً من الكتب الأدبية واشترك مع زميل صباه فارس نمر في تأليف وترجمة مجموعة من الكتب في سير الأبطال ومشاهير العلماء . كان ذلك النشاط العلمي متقدمة لعمل صحفي أدبي له روعته إذ ذاك ولا تزال له روعته في البيئات العلمية والأدبية في مصر والشرق ، ذلك عمله في

إنشاء «المقتطف» بمعاونة زميله فارس نمر منذ شهر يونيه سنة ١٨٧٦ وهي مجلتهما الشهرية التي احتوت على مواد تقتضى كما يقول صاحبها «إمعان نظر» فإذا قرأته قراءة قصة لم تستفد منه شيئاً ، والحق أن المقتطف وخاصة في سنتيه الأوليين يمتاز بأن موضوعاته علمية بحتة ، ويمتاز بالدقة ودقة كتابتها يعقوب صروف خاصة ، وقد وظف صروف وصاحبه جلة كتاب لبنان في تحرير المقتطف وفي مقدمتهم الدكتور فان ديك المستشرق المعروف .

وقد انتقل صاحب المقتطف إلى مصر في العام الثالث من نشأته — وكانت شهرتهما قد سبقتهما إليها — وفي مصر اتسع أفق المجلة وفتحت صدرها للكتاب والمثقفين من بلاد الشرق العربي جميعاً ، وملأت الحياة الأدبية بفراغ كان ملحوظاً ، وسمحت للشعر أن يحتل مكانه بجانب النثر العلمى والفنى ، ومضى صروف يقضى صباحه ومساءه في دار المقتطف يحرق معظم مقالاته ويهذب القليل النادر من غير قلبه ، ويترجم له فصولاً من أمهات الصحف الأمريكية والأوروبية . وقد أمضى يعقوب وصاحبه تاريخهما الصحفى الأول في إنشاء المقتطف والتمسكين له إلى أن لاحت لهما فرصة العمل في الصحافة في صورة أكثر اتساعاً .

والمقتطف الذى كان فيه المترجم سيد الموقف بالقياس الى زميله فارس نمر ، مجلة شهرية علمية صناعية زراعية ، صدرت أول ما صدرت في أربع وعشرين صفحة ، ثم أخذت صفحاتها تزداد على الزمن حتى تجاوزت المائة صفحة ، ولعلها كانت في زمانها الأول وإلى مطالع القرن العشرين أكثر الصحف العربية العلمية انتشاراً وأوسعها شهرة وأدقها مادة وأجزلها فائدة ، في جميع البلاد الناطقة بالضاد .

ويذكر فيليب دى طرازى مؤرخ الصحافة العربية «أن مباحثها — يقصد مجلة المقتطف — تتناول كل فن ومطلب بحيث لو جمعت موادها العديدة على ترتيب حروف الهجاء لتألفت منها دائرة معارف أو قاموس

كبير يرجع إليه الباحثون في فروع العلوم المختلفة ، فإذا أرادوا معرفة ما قيل عن عمر الأرض مثلاً قالوا : هلم إلى مجموعة المقتطف لنرى ما فيها عن هذا الموضوع ، وهكذا قل عن سائر المواضيع العلمية والأدبية والصناعية والتاريخية والتجارية والزراعية والفنية والآثار القديمة والاكتشافات الحديثة والاختراعات العصرية وتراجم مشاهير الرجال وغيرهم .

أما قصة إنشاء المقتطف فقد رويت على لسان صاحبه حيث قال : « ورأينا في تلك الأثناء أنه يستحيل علينا أن نجاري الأمم الغربية في العلوم والمعارف إذا اقتصرنا على ما يترجم ويؤلف من الكتب لأن العلوم الحديثة جارية جرياً حثيثاً فما يؤلف هذا العام يسمى بعضه قديماً في العام الثاني ولا بد من جريدة تقطف ثمار المعارف والمباحث العلمية شهراً فشهراً وتذيعها في الأقطار العربية ، ففقدنا النية على إنشاء المقتطف لهذه الغاية ورسماً خطته التي سار عليها منذ إنشائه إلى الآن ، وقد صدر المقتطف في بيروت سنة ١٨٧٦ وساهم في تحريره جلة الأدباء والكتاب والعلماء ، واستقبله قراء العربية في كل مكان استقبالا يعز مثاله في تاريخ الصحافة العربية ^(١) .

ويجدر بمن يؤرخ ليعقوب صروف ألا تفوته حقيقة تاريخية هامة ، هي أن التاريخ للمقتطف خاصة هو تاريخ للمترجم أيضاً ، وليس أدل على قدر يعقرب من أن ينال المقتطف إعجاب الصنفوة المختارة من رجال الأدب والسياسة ، فقد نما إلى رياض باشا وشريف باشا — وكلاهما خصم سياسي للآخر — أن صاحبي المقتطف قد أزمعا الهجرة به إلى مصر فكتب أولهما إليهما يقول : « أخبرت أنكم عزمتم على نقل جريدتكم الغراء إلى الديار المصرية فسرني ذلك لما تحويه من الفوائد الجليلة والنفع الدائم لكل بلاد رفعت راية علومكم فيها ، وقد اغتنمت هذه الفرصة لأبدى بها نصيحتي لأبناء هذا القطر

(١) تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ٥٢ : ٥٣

بمطالعتها واجتثاء فوائدها ، فإن للمقتطف عندى منزلة رفيعة وقد ولعت بمطالعة منذ صدوره إلى اليوم فوجدت فوائده تتزايد وقيمه تعلو في عيون عقلاء القوم وكبرائهم ؛ ولطالما عددته جليسا أنيساً أيام الفراغ والاعتزال وندياً فريداً لا تنفد جعبة أخباره ولا تنتهى جدد فرائده سواء كان في العلم والفلسفة أو في الصناعة والزراعة التى عثرت فيها على فوائد لا تثنى ؛ هذا علاوة على ما فيه من المباحث الآيلة إلى تهذيب العقول وجلاء الأذهان وتفكيك القراء .

ثم يقول الثانى فى كتاب إلى صاحبى المقتطف « إن الذين خبروا حال العالم واستقصوا سنن الهيئة الاجتماعية واستقرموا أسباب ترقية البلدان واتساع نطاق الحضارة فى كل مكان أجمعوا على أن العلم أعظم ركن فى بناء التمدن والمعارف وأوثق رباط لحفظ الأمم وتعزيز شأنها ، ولذلك عظمت قيمة العلماء عند أرباب العقول واعتبرت الوسائط التى من شأنها بث العلوم وتعميم المعارف فى البلدان . ولما كان المقتطف خير ذريعة لنشر المعارف بين المتكلمين بالعربية فلا عجب إذا نال مانال من رفعة المقام فى اعتبار الخاصة والعامة معاً .

« وقد بلغنى فى هذه الأثناء خبر نقله إلى القطر المصرى بعدما خبرته وخبرت معارفكم زماناً ، فاستحسنتم أن أبدى مسرتى بذلك لما فيه من الفوائد التى لا تستغنى عنها البلاد ، ولا ريب عندى أن عقلاء مصر ونهائها لا يغفلون عن تعميم فوائده ولا يتقاعدون عن السعى لنشر علومه بينهم لاسيما وقد علموا أن إنارة الأذهان وتثقيف العقول أقوى واسطة لحفظ الأمة وشدها عرى اتحادها ، (١) .

فاتفاق الضدين — أى رياض وشريف — وكلاهما صاحب مدرسة فى السياسة والنظر إلى الحياة على أن المقتطف جدير بالتقدير ، فيه تقدير خفى

لمن أنشأه وكرس العمر لإبرازه في هذه الصورة البديعة التي عرفها له معاصروه
ثم اتفق صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس مدير مطبعة المقتطف
على إصدار جريدة المقطم في ١٨ أبريل ١٨٨٨ « جريدة سياسية غرضها خدمة
الوطن ، وذلك في ظل « الحضرة الفخيمة الخديوية الظليل ، وهم يعتمدون في
طلب الترخيص على سمعتهم الصحفية والأدبية في تحرير المقتطف ونشره ، وقد
أثبت الثلاثة أنهم صحفيون قادرون حقاً سواء في التحرير أو استقاء الخبر ،
غير أن صحفيينا يعقوب صروف لا يشارك في هذا النشاط الصحفي اليومي
مشاركة الأصل حتى لا يحول المقطم دون تفوقه وتجويده في إخراج المقتطف
فقد ذهب بروحه وعمله إلى مجلته الأولى ، وكاد أن يكون وحده صاحب
الأمر فيها وإن ذكرت أعدادها أصحابها الثلاثة جميعاً

ويعقوب صروف صاحب أسلوب امتاز به بين أقرانه ومعاصريه ، فهو
كاتب أثر العلم في عبارته فلا هي سقيمة كعبارات العلماء الذين يجهلون
آداب اللغة العربية ولا هي حوشية أو غريبة مما يصعب فهمه على طلاب العلم
أو الأدب الرفيع ، وهو ينحو في كتابته نحو التدقيق في كل كلمة والتحقيق لكل
معنى ، وقد يقتضيه ذلك مراجعة الكتب المتباينة والنظر في المعاجم حتى يبلغ
موضوعاً يطمئن فيه إلى صحة ما كتب سواء اتصل ذلك بالموضوع أو البيان ،
وقد استطاع بأسلوبه المتفرد أن يغري قراء المقتطف بقراءته مهما تختلف
أذواق المطالعين أو تدق على فهم العاديين الموضوعات التي يطالعونها ، وهو
إلى جانب أسلوبه العلمي يتأثر بالموضوع الذي يكتبه فان اتصل بناحية من
نواحي العاطفة رأينا بعض الأسجاع المقبولة تتخلل عباراته بل رأينا الشعر
يطاوعه على تأييد فكرته ، ثم يمتاز يعقوب بأنه كان من أقدر الكتاب على
التأخير فهو يعرض عليك كتاباً ضخماً في صفحات قصيره ويلم بكل شاردة

أو واردة فيه ، ويستطيع قارىء التلخيص لدقته وعمقه أن يزعم مطمئناً أنه قرأ الكتاب وألم بأطرافه جميعاً ، ولصروف فضل آخر لا يقل عن أبواب النشاط المختلفة التي برز فيها ، فهو يعنى أشد العناية بعرض نظريات وأقوال كتاب وعلماء وفلاسفة الغرب ، ويعلق عليها تعليق الخبير العارف بأصحابها وبما أنشأوا من آيات الفكر الحديث ، وقد بين بذلك لقراء العربية أن في أوروبا آراء حديثة جديدة بالنظر والاعتبار ، وأن في أوروبا وأمريكا رجال فكر يجب أن يعرفهم المصريون والعرب في آثارهم الضخمة التي تضيف إلى العلم جديداً ينبغى ألا يفوت أمة ناهضة تسعى إلى العلم والتشقيف

ولم يقف نشاط يعقوب صروف عند الممتطف وهو ميدانه الأول أو عند المقطم إذا غاب صاحبه فارس نمر فيساهم فيه بقسط بل شارك مشاركة الأصيل في تحرير مجلة « اللطائف » لزميله شاهين مكاربوس ، فكتب فيها كثيراً من المقالات وعالج بعض الفصول الفكاهية ونشر نبذاً من هنا وهناك دل الاختيار فيها على الذوق الجميل والذهن الصافي ، ثم تولى تهذيب ما فيها من غير إنشائه ، حتى كانت اللطائف في ذلك الوقت أحب المجلات المصرية إلى المصريين وأزوجها عند القراء في بلاد الشرق العربي

وبحس القارىء ليعقوب في بعض مقالاته التي تتصل بالاجتماع أن نزعتة اشتراكية بعض الشيء ، وهو الذي دعا في أكثر من مناسبة إلى تدخل الحكومة والمسؤولين ليحدوا من مطامع الأغنياء وملوك الأرض ويقفوا الجشعين وعباد الذهب ، وأن سلاح الثراء إذا أُرهِف أساء أصحابه استعماله كما يسمى في كثير من الأحيان أقوياء البدن والمفوقون في استعمال الأسلحة أبدانهم وأسلحتهم ، وهي التفاتة قل المتحدث في شأنها من العرب من كتاب

الأدب أو الاجتماع أو رجال العلم والسياسة في القرن الماضي ومطالع القرن العشرين

وهناك شبه عميق بين يعقوب بن صنوع صاحب جرائد « أبو نظارة » وبين يعقوب صروف صاحب المقتطف من حيث فهم كليهما لقدر الرحلة واعتبارها وسيلة من وسائل التثقيف وتقوية الملاحظة ، فزار صروف في سنة ١٨٩٣ عواصم أوروبا جميعاً ولقى فيها جلة علماءها وأدباءها واستحق منهم إعجابهم وتقديرهم فكلفه بعضهم الكتابة عن أحوال مصر ومستقبلها فنشر في ذلك رسالة طيبة باللغة الانجليزية تليت في إحدى الجامعات العلمية الممتازة ثم عاود زيارة أوروبا ووثق علاقاته بأصحاب الفكر حتى كان كثيرون منهم يرسلونه وينقلون عنه في مقالاتهم وكتبهم ويرون فيه حجة من الحجج التي يعتمد عليها ويؤخذ عنها

وخالف صروف معظم صحفيي عصره فهو مقل في صياغة الشعر ، ولم يؤثر عنه بيت في مدح إنسان بل ان معالجته للقريض اختصرت في أكثرها على الوصف ، ومن قصائده قصيدة في وصف « مشاهد أوروبا » وأخرى في « وداع باريس » و « وداع لندن » و وصف « رأس البر » ولعله الشعر الوحيد الذي قيل مدحاً في هذا المصيف المصري ، كما كانت له بعض القصائد القليلة في الرثاء ، واتجاهه في هذا كله يجاوب اتجاهه في نثره ويمائله من حيث غلبة الناحية العلمية والنظرة إلى الأمور نظرة فلسفية فيها من العمق شيء كثير ، ننشر هنا بعض قريضه في وداع باريس كمثل لشعره الرقيق :

ودعتُ باريس مفتوناً بمرآها	وآى حسن تجلى من محياها
وجاه ملك رفيع الشأن جاورها	دهراً طويلاً ولم يبرح بمغناها
رواقه مسيطر في معالمها	وبدره مشرق في أوج عليها
مرسومة في جبين الدهر صولته	تنيه عجباً بأولاهها وأخراها

وعصبة عصمتهم في صناعتهم	إلهة الحسن فاستهدوا بسميها
وخلدوا ذكر أرباب السيوف ومن	فاق الورى سمجة أوفاقهم جاها
أوغاض بحر المعاني فاجتني درراً	وصاغ منها حلى حسن بها باهى
أوغاص في لجج بحر العلم مجتلياً	غوامض الكون تعميماً لجدواها
وآل علم وفضل طار صيتهم	فطبق الأرض أقصاها وأدناها
هم الألى في سماء المجد قد رفعوا	لها مناراً وأعلوه فأعلاها

وبعد فقد عاش صروف وشغل الحياة الأدبية والعلمية في مصر والشام
وترك تراثاً لا يزال يعيش فيه ، وسيبقى حياً فيه ما بقى للصحافة والعلم والأدب
مكان بين الأحياء

أبو السعود والمويلحي

ربطنا بين الشخصيتين لتشابه عميق بينهما ، فكلاهما صاحب محاولة في إنشاء الصحف الشعبية ، أى الصحف التى يصدرها أفراد ، فإلى زمنهما أى إلى سنة ١٨٦٧ لم تعرف مصر الصحافة العربية الشعبية ، فقد صدرت قبل نشاطهما الصحفى ست صحف رسمية هى على التوالى « جرنال الخديو » و « الوقائع المصرية » و « الجريدة العسكرية » و « الجريدة التجارية الزراعية » و « يعسوب الطب » و « الجريدة العسكرية المصرية » ، وهى جميعاً صحف للدولة تقوم على إصدارها وتحريرها الحكومة المصرية .

فإذا جاء عصر إسماعيل ، وهو عصر لا ينكر فضله على الصحافة والصحفيين ، تهباً أبو السعود وإبراهيم المويلحي للمنافسة فى هذه الناحية من النشاط الفكرى الرفيع ، فقام أبو السعود أفندى بمحاولة إصدار مجلة شعبية ، تميزت بأنها صحيفة « مواليس » ، إن صح التعبير ، موالية للنظام السياسى وضورة مطابقة لأغراضه ، ثم قام فى نفس الحقبة إبراهيم المويلحي بمحاولة مشابهة ، هى إصدار مجلة شعبية لم تحرص على الولاء الذى أثر عن مجلة أبى السعود فكانت صورة بديعة للصحافة الشعبية .

وكانت المحاولتان أول أساس لتاريخ الصحافة الشعبية فى مصر ، ولذلك يؤكد مؤرخو الصحافة المتزهون عن الغرض أن هاتين المحاولتين خفظتا لمصر فضل السبق فى إنشاء الصحافة الوطنية ، وكان المعروف من قبل أنها مهنة طرأت بإقبال الشآميين على مصر واحترافهم هذه المهنة دون المصريين . وحسب التاريخ أن يضع صحفيينا فى هذا المكان ، حيث قامت على أكتافهما الأحجار الأولى من البناء الضخم الذى شيده المصريون لصحافتهم فيما بعد^(١)

(١) راجع الفصل المكتوب عن نشأة الصحافة الشعبية فى كتاب « تطور الصحافة المصرية وأثرها فى النهضة الفكرية والاجتماعية » للمؤلف

فعبد الله أبو السعود أفندى شخصية صحفية لا يجوز إغفالها إذا اتجه حديثنا إلى أعلام الصحافة في الشرق الأدنى ، لا لأنها خلقت في الصحافة جديداً أو بعثت فيها روحاً لم تكن لها ، بل لأنها تمثل طوراً من أطوار الصحافة المصرية إذا تنوسى كانت هناك ثغرة عميقة بين قديم الفن الصحفي وجديده

وأبو السعود أفندى صحفيين الأول في صحافة مصر الحرة شاعر يصوغ القوافي وناثر يجيد البيان ، و مترجم من عيون المترجمين في عصره لم تستغن عنه صحيفة من صحف إسماعيل الرسمية ، فكان من بين وظائفه العامة الترجمة للأجانب الناشرين في هذه الصحف ، وأبو السعود أفندى يمثل الحلقة التي تربط بين الصحافة الرسمية والصحافة الشعبية ، إذ كان أول من أنشأ من المصريين صحيفة شعبية غير أنها صحيفة تتفق مع مظاهر العصر وحاجاته ، فقد ظهرت جريدته « وادى النيل » سنة ١٨٦٧ عقب افتتاح مجلس شورى النواب ، وهو المجلس الدستوري الأول في حياة مصر الحديثة ، ولم يكن لهذا المجلس أى أثر إذا قيس بالمجالس التشريعية المماثلة له في أوروبا ، بل كان شيئاً غريباً حتى على أعضائه ولكن إسماعيل نظر إليه كمظهر يتصل بأبهة الملك ويشابه من بعيد مجالس الغرب .

وإذا كان المفروض أن يكون في مصر مجلس للشورى يجتمع وينفض على هذا النحو ، فإن الصحافة الرسمية لا يجوز أن تكون معبراً عن هذا المجلس الشعبي ومن هنا بدأ الخديو يرى وجوب إنشاء صحيفة شعبية تمثل هذا المجلس أو تساير الفكرة في وجود هذا المجلس فأوحى إلى عبدالله أبي السعود أفندى بأن يصدر جريدته وادى النيل « مصرية أسبوعية سياسية علمية أدبية » وكانت الجريدة توزع في كل مكان ينزله المسلمون^(١).

(١) راجع رءوس أعداد جريدة وادى النيل سنة ١٨٦٧

وكانت الفكرة في إنشاء هذه الصحيفة بجانب التعبير عن النزعات الشعبية الجديدة التي تتمثل في مجلس شورى النواب خدمة الحديو وتحقيق سياسته في اعتدال ، وما كان يمكن أن تمثل جريدة « وادى النيل » الصحافة الشعبية في غير هذا الحيز الضيق من الحرية ، ذلك لأن صاحبها موظف في الحكومة له مآثر وخدمات في الصحافة الرسمية ، وقد رحبت الوقائع المصرية أيما ترحيب بالصحيفة التي جاءت تؤنسها في وحشتها ^(١) ، وحيثما بعض الصحف الفرنسية المعاصرة في مدينة الإسكندرية فقالت « قد حدثت صحيفة مصرية جديدة بمدينة القاهرة تسمى وادى النيل ، وقد أوضح منشئها وناظرها أبو السعود أفندى فيما أورده من بيان الغرض المقصود بأنشائها أنه التزم بأن ينشر فيها الأخبار النافعة للديار المصرية سواء كانت ترد من أوروبا أو من الأقاليم المصرية » ورددت هذا الخبر السار في ربوع الشام صحيفة حديقة الأخبار البيرونيه ^(٢)

ويعتبر جهد أبي السعود الصحفي محاولة لا بأس بها ، فصحيفته أول صحيفة وطنية شعبية في مصر ، وقد زحم معظم صفحاتها بأخبار الحديو ورجال حكمته وتولى فيها مناقشة ما اعتادت نشره جريدة « الجوائب » وهي صحيفة الأستاذة العربية التي ينشئها أحمد فارس الشدياق ، وكان خلافهما واتفاقهما في المسائل الأدبية والمباحث العلمية خير ما في صحافة الشرق الأدنى خلال تلك الفترة من تاريخ الصحافة العربية ، وكانت جريدة وادى النيل من أوفر صحف الشرق عناية بالأعلان والتفنن فيه ، ولها مثال طريف نشرته بمناسبة تجديد اشتراكها قالت « المرجو من انتهت مدة مرتبه من صحيفة وادى النيل لغاية شهر جمادى الأولى الجارى وهو يرغب في الاستمرار أن يبادر بما يفيد استمرار عادة ترتيبه قبل انقضاء مدة الشهر المذكور إذا لم يزل يرغب في نسخة هذه الصحيفة تتردد عليه بالزيارة إلى حد الدار وبذلك لزم الأشعار على سبيل

(١) الوقائع المصرية في ٢٣ ربيع الأول عام ١٢٨٤ هـ

(٢) راجع فيما قاله الصحف عنها ذيل العدد العاشر من وادى النيل (سبتمبر ١٨٦٧)

التذكار ، ا وقد اختصت وادى النيل بمطبعة لنشرها وهى من أولى المطابع في مصر الحديثة

وكان نشاطها مضرب المثل إذ تولت طبع « جريدة أركان حرب الجيش المصرى » وهى صحيفة رسمية كانت تصدرها الدولة لضباطها حافلة بأفضل البحوث والموضوعات التى ترفع من شأن أفكارهم وتفتق أذهانهم^(١)، كما قامت بطبع صحيفة « روضة الأخبار » لصاحبها محمد أنسى أفندى ، كما طبعت عدة كتب فى مختلف النواحي العلمية والأدبية والتاريخية

وكان الخديو اسماعيل شديد الرضا على وادى النيل يؤثرها بالمال ويمدها بالعون والأخبار ويعين لصاحبها الراتب جزاء جهده فى نشرها وقد حلت سنة ١٨٧٣ وفى ميزانية الدولة إعانة لوادى النيل وصاحبها من حكومة الخديو قدرها ثمانية وعشرون ألف قرش^(٢) ، وأبو السعود لا يقتصر على وظيفته الرسمية ولا يرضى بالترجمة فى الصحافة الرسمية الأدبية والعلمية والعسكرية وحدها ، ولا ينقطع لجريدته وادى النيل بل يوحى إلى ابنه فيما بعد بأنشاء جريدة « روضة الأخبار » ويقوم هو بتحرير الجانب السياسى والإشراف على القسم الأدبى فيها

وكانت هذه الجريدة عملاً صحفياً عظيماً فهى من أولى الصحف التى صدرت فى مصر أكثر من مرة فى الأسبوع إذ كانت تصدر فى أيام الأحد والثلاثاء والخميس ، كجريدة « سياسية علمية أدبية زراعية مالية تجارية » وهى وإن كانت فى أخبارها صورة مطابقة للوقائع الرسمية فقد جددت فى صحافتها بأن وقفت جزءاً من صفحاتها على تعريب رواية « سلسلة » ، كما نشرت فصولاً متصلة من كتب

(١) راجع ذيل أعداد السنة الأولى من جريدة أركان حرب الجيش المصرى

١٨٧٣ - ١٨٧٤

(٢) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢١١ معية تركى فى ٢ جمادى الثانية ١٢٨٩ هـ ويلاحظ أن مطبعة وادى النيل كانت فى حى باب الشرية حيث تحرر الجريدة ويقم صاحبها .

القدماء والمحدثين ، وقد وقف عبدالله أبو السعود أفندى جزءاً من نشاطه على تغذية هذه الصحيفة شعراً ونثراً بجانب نشاطه الملحوظ في تعريب فصول الأجانب للصحافة الرسمية غير ما أثر عنه من أعمال أدبية سواء كانت موضوعاً أو مترجمة ^(١) وقد بقي صحفيين في ميدان الصحافة حتى قضى وكتب في نشأة الصحافة الحرة في الشرق الأدنى عامة ومصر خاصة تاريخاً ينبغي أن يبقى على مر الزمن .

ثم يتصل هذا النشاط الصحفي الشعبي بظهور شخصية تضطرم حماساً لمصر وتتطلع في ثقة إلى مثل القرن التاسع عشر ، تلك شخصية إبراهيم المويلحي الأديب الكاتب في عصر الخديو اسماعيل

والمويلحي شاب واسع الثراء تمثل أسرته أقدم البيوتات التجارية في مصر شغل حياته بالناحية السياسية وتفرغ لها ، ظن أن مظاهر الحياة الحرة التي يمثلها إسماعيل في مجلسه البرلماني وأساليبه الرسمية وأعماله العمرانية ، توحى بالنظر إلى الأمور نظرة حرة لاتحدها أسوار ولا قيود ، فأنشأ — بالاشتراك مع عثمان جلال القصاص المعروف وصاحب التراجم المشهورة — مجلة « نزهة الأفكار » ، صحيفة سياسية أسبوعية وكانا جديدين حقاً على الصحافة المعاصرة في سنة ١٨٦٩ ؛ فصدرت جريدتهما غربية عن الوسط الصحفي ، إذ أن الصحافة الحرة بدأت في مصر ؛ لاهى شعبية ولاهى رسمية في جريدة وادى النيل ، ثم تخلصت من هذا المظهر الوسط وظهرت على سجيئتها شعبية حرة في نزهة الأفكار ، وكان الخديو لا يقر هذا التطرف الذي تضمنته نزهة الأفكار ، ولا يحتمل هذا التجديد في الرأي والمعاني ، فهو يريد صحافة حرة ولسكن إلى

(١) لأبي السعود أفندى عشرات الكتب منها « الدرس العام في التاريخ العام » طبع جزء منه سنة ١٨٧٢ وعرب « تاريخ مصر القديمة » لما ريت باشا كما نشر ديواناً شعرياً وأرجوزة نظم بها سيرة محمد علي واشترك مع رفاعة الطهطاوي وتلاميذه في ترجمة قانون نابليون وتولى هو وحسن أفندى فهمي تعريب قانون المرافعات — راجع في ذلك عصر اسماعيل للرافعي ص ١٠٢٧

حد ما ، وهذان شابان أغرتهما مظاهر التجديد الذى أخذ يدب فى الحياة المصرية ، فظنا أن لقلبيهما حرية الكتابة على مايهويان ، فعرضا فى العدد الثانى من مجلتهما بالنقد للجيش وشئونه فصادرها الخديو بأيعاز من ناظر حربيته ؛ وكانت أول صحيفة حرة ما كادت أن تولد حتى نزل بها القضاء

وهنا يفرق الصديقان ؛ ينتهى عثمان جلال إلى وظائف الحكومة ويختتمها بمنصب فى القضاء المختلط ، أما صحفيينا فيبقى فى الميدان السياسى لا يستطيع أن يملك صحيفة تعبر عن رأيه الحر وفكرته الجديدة ، وإن وسعته مجالس إسماعيل النيابية يمثل المعارضة ويحمل لواءها ، ولسكنه لم يستقر على حال فى تجارة أو سياسة ، فقد أسس مطبعة باسمه ومضى ينشر فيها الكتب العلمية والأدبية القديمة والحديثة ، وهو فى سياسته العامة أثير الخديو وصديقه ، يتمتع بعطفه مواليا أو معارضا ، يلقى فى أعماله التجارية من تأييده ما يهيم له فرصة الغنى والثراء وتتسع له فى وظائفه الحكومية وساطة الأمير فيجد فى هذه الوظائف متعة الشاب المدلل ، بيد أن صحفيينا كره اللشاط فى ناحية واحدة فكان الفشل حليفه فى كثير من الأحيان . أفلسنت تجارتها ولم يفلح موظفاً فى الدولة أو صحفيا فيها إلى أن انتهى عهد إسماعيل ، فصحبه صديقه المويلحى إلى نابلى حيث بدأ يحدد حياته الصحفية ويكتب صفحتها الرائعة فى تاريخه الطويل .

ولم يؤثر عن صحفيينا المويلحى خصومة بينه وبين الخديو ، ولولا دعاة السوء لأذن إسماعيل بصدور صحيفته بالرغم من المعانى الجديدة التى حملتها فى عددتها النادرين ، فالمويلحى مضى يتمتع بعطف إسماعيل قريبا من حكومته أو بعيداً عنها ، وهى تقاليد دعمها إسماعيل ، فقد كان جند المويلحى من أخلص الناس لمحمد على وبيته ، حفظ الخديو لهذه الأسرة مواقفها وأبى أن يضام بيت المويلحى ، فبالرغم من انصراف إبراهيم المويلحى إلى حرفة الأدب والصحافة وهى فى ذلك الوقت حرفة الفقراء والمعدمين ، فأن إسماعيل أخذ

بيده حين أفلس تمارته في مضاربة بالبورصة ، بل قرر ولي المنعم ألا يدخل بيته أحد من السيدات إلا إذا كانت ملابسها من حرير المويلجى وهى صناعة الأسرة من قديم الزمان ، ومضى اسماعيل يوصله بالخير حتى استطاع المترجم أن يؤسس جمعية المعارف ثم يلى مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥ هـ ساهمت فى طبع كثير من المؤلفات النادرة وهو فى كل ذلك أثير الخديو قريب إلى قلبه^(١) . ثم انتقل الخديو إسماعيل إلى إيطاليا فى سنة ١٨٧٩ فصحبه إبراهيم المويلجى كاتما لسره ومونساه فى وحدته ، بل تولى وظيفة الداعى لآماله وأحلامه عند الملوك ولدى السلطان واتخذ من الصحافة وسيلة لخططه ، وكانت كل صحيفة تصدر عنه توحى بها الحاجة أو الظرف المناسب ، فإذا انتهى الظرف أو بلغ حاجته وقف عن صدورها أو أعلن احتجاجها إلى حين ، ومن بين هذه الصحف صحيفة « الخلافة » التى أنشأها فى نابلى باللغتين العربية والتركية ، منذدا فيها بالسلطان عبد الحميد الثانى لأنه وافق الدول الأوروبية على خلع إسماعيل ثم أخذ ينشر فيها فكرة العروبة فى الخلافة وأحقية مصر فيها وظلم الأتراك فى الاستحواذ عليها ، وهزت هذه الصحيفة جوارب الاطمئنان فى عاصمة الخليفة ، وحاول السلطان القضاء عليها بالوسائل السياسية العليا ثم وجد أخيراً فى ذهبه خير علاج لهذه الحملة ، وتم له ما أراد فتوقفت الخلافة عن الصدور ، ثم نزح إلى باريس وتولى إصدار صحف عدة منها صحف الاتحاد والأنباء والرجاء ؛ وكلها تدعو لإسماعيل وتمجد أعماله ، بيد أنها صحف لا تغرى قارئاً يعاصر ظروف الخديو أو يعرف الصلات التى كانت بين الكاتب والأمير ، فاحتجبت كلها بعد عدد أو عديدين ، ووجد صحفينا أخيراً فى عاصمة الفرنسيين الأفغانى والشيخ محمد عبده يصدران صحيفة « العروة الوثقى » وهى من خيرة الصحف الشرقية فى أوروبا فساهم فيها مساهمة الهواة العابرين .

(١) تاريخ الصحافة العربية - ٢ ص ٢٧٧ ، ٢٧٨

ثم ينتقل كاتبنا إلى الآستانة ويمضى فيها عدة أعوام ، ويعين في بعض وظائف السلطنة الكبرى تقديراً لمكانته الأدبية واعترافاً بخدماته للسلطان في مصر وأوروبا ، وفي الآستانة اختلط الأديب الصحفي برجالات السياسة التركية وأوساط القناصل والسفراء ودرس عن كثب وسائلهم جميعاً ، ثم عاد إلى القاهرة ، وأنشأ صحيفته الأسبوعية « مصباح الشرق » ، وهى من الصحف الممتازة التى تمثل وجهة نظر الخديو والسلطان ، ومضت المصباح ناقدة السياسة العامة فى أسلوب رصين وعبرة سخية ونكتة لاذعة وبيان هو غاية ما يرجوه الصحفي فى الإنشاء والتحرير ، وانتهى صحيفتنا كما بدأ ، كان فى نشأته أول صحفي سياسى فى مصر ، ثم انتهى تاريخه فى سنة ١٩٠٦ علماً من أعلامها المنشئين لها المجتهدين فى نواحيها العاملين على توكيد سلطانها وخطرها وإن صحبه الفشل فى رسالته وكبا به الزمن مرات ومرات

آل تقسرا

يرتبط تاريخ آل تقسرا ، سليم وبشارة وجبرائيل ، بتاريخ الأهرام ، ويرتبط تاريخ (الأهرام) بما كانت عليه الحال في مصر، يوم فسكرو أصحاب الأهرام في إصدارها ، فقد كانت الصحافة الحرة في مصر ، صحافة لا هي شعبية ولا هي رسمية ، وهذه الصحافة على قلتها كانت تمثل الرأي العام المصري كما كان يمثل مجلس شوري النواب ، هي صحافة موالية ، يدها ممدودة إلى منح الخديو إسماعيل وتصدر هادئة الطبع معتدلة المزاج فكان عطفه عليها سائغاً واحتفاؤه بها ملحوظاً وحده على محرريها ومصدرها مضرب الأمثال .

وقد كان للخديو إسماعيل أبلغ الأثر في نهضتها ، ومساعداته الأدبية والمادية للتأمين عليها غير منكرة ، وقد فتح صدره وصدر بلاده للصحفيين الشاميين ، فأقبل هؤلاء على اصطناع القلم واتخذوا الصحافة حرفة لهم حتى كان أكثر أصحاب الصحف في عهده من أهل الشام والبلاد المجاورة لها ، وقد جذبهم — إلى جانب صلات الأمير — هذا المتاع الفكري الذي كان يحياه المصريون ، فكانت الحرية — حرية القول والكتابة — قد عزت في بلاد الدولة العثمانية جميعاً حيث ضغطت الحكومة التركية وولاتها على حرية المطبوعات ، وكان الأدباء والأحرار يعاقبون على الهمس أو الإشارة بينما كانت مصر دون بلاد السلطنة جميعاً تتمتع بحرية منقطعة النظير إذا قيست بسوريا ولبنان ، وقد سمحت الحياة الفكرية بوجود صحافة تقرأ لأن النهضة المصرية كانت أوسع مدى مما عليه بلاد الشرق جميعاً ، وظروف الحياة المصرية بخديوها وأزماتها واضطراب الأفكار بكل جديد في شتى ميادين

الحياة، كل أولئك جعل مصر تحتل في سعة آداباً وصحفاً وسياسة، وقد فرضت شخصيتها المعنوية المتميزة وجودها على الدولة العلية مستمدة هذا الوجود من تاريخ حافل وذاكريات يحسب لها في مقومات الشعب الف حساب

أغرّت هذه الحياة السميحة الطلقة الغنية كثيرين من أحرار العرب على أن ينزلوا بين المصريين أهلاً، وأذنت لهم هذه الحياة الوفيرة أن يدلوا بدلوهم في مختلف أوجه النشاط المختلفة، فكان منهم الممثلون والأدباء والصحفيون، وكان في مقدمة الصحفيين الذين شغفهم وادى النيل بأميزه وناسه سليم وبشاره تقلاً.

وهما صحفيان بالطبع والسليقة، وكاتبان بالدرس والمرانة، استطاعا في وقت قصير أن يسجلا تاريخاً حافلاً في الصحافة العربية في جريدتهما «الأهرام»، الصحيفة المثل في الصحافة العربية والجريدة الكبرى في العالم العربي، وأقدم دورية سياسية في الشرق بقيت على الزمن وتخطت أحداث الحياة وقطعت من عمرها ثلاثة وسبعين عاماً، ففي ديسمبر سنة ١٨٧٥ تقدم «الخواجه سليم تقلاً» كما يسميه الترخيص بإنشاء الجريدة، تقدم إلى نظارة الخارجية المصرية يلتمس كما ينص رد الحكومة «التصريح إليه بإنشاء مطبعة تسمى الأهرام كائنة بجهة المنشية بالاسكندرية يطبع فيها جريدة تسمى الأهرام تشتمل على التلغرافات والمواد التجارية والعلية والزراعية والمجلية وكذا بعض كتب كمقامات الحريري! وبعض ما يتعلق بالصرف والنحو واللغة والطب والرياضيات والأشياء التاريخية والحكمة والنوادر والأشعار، والقصص الأدبية وما يماثل ذلك من الأشياء الجائز طبعا، ووافقت الخارجية^(١) على إنشاء المطبعة والصحيفة وعلقت موافقتها على شرط ذكرته هو ألا يتداخل صاحبها «مطلقاً في المواد البولوتيقية وأمثاله لقانون المطبوعات» ثم صدر أمر لمحافظة الاسكندرية

(١) كانت أ.ور الصحافة إلى ذلك الوقت تابعة لمكتب الصحافة بنظارة الخارجية.

« بعدم المعارضة للخواجة المذكور في إنشاء المطبعة المحكى عنها » (١)

وصدر الترخيص بالأهرام في اليوم الأخير من ديسمبر سنة ١٨٧٥ لرئيس تحريرها سليم تقلا ، يعاونه في النواحي الإدارية شقيقه بشاره وهما شابان لبنانيان ، كان سليم أظهرهما في التحرير والأنشاء ، له صلوات طيبة بأدباء بلده ، وله حس أدبي أثر عنه في كتاب ألفه عن النحو والصرف ، وبعض القصائد الوصفية ، والمقالات الأدبية والاجتماعية في صحفه المختلفة

أصدر سليم (الأهرام) أسبوعية ثم أنشأ جريدة « صدى الأهرام » في ٩ ديسمبر سنة ١٨٧٦ يومية وطبع منها عدة آلاف أرسلها إلى الأعيان رجاء الاشتراك فيها فردت جميعا ، ومع ذلك مضت الأهرام صحيفته الأسبوعية وصدى الأهرام صحيفته اليومية ، وقد اختلف محرر الأهرام مع خديوم مصر فسجنه وأغلق صحيفته وصادر مطبعته ، ثم شفع فيه عنده فأفرج عنه وعن صحيفته فأضاف اليهما صحيفة جديدة سماها « الوقت » وأخيراً استغنى بالأهرام عن صحفه جميعا ووقف عليها نشاطه وجهده ، وكان سليم على صلوات طيبة بتوفيق ولى العهد فأذا تولى صديقه الأريكة الخديوية كان هو وشقيقه في خدمته حتى شبت الثورة العرابية . فوقفا إلى جانب الخديو ، فأحرقت مطبعتهما في الاسكندرية بما كان فيها من ورق وحبر وكتب وآلات ، فاضطرا إلى النزوح إلى الشام حيث بقيا فترة الثورة بعيدى عن مصر ونشاطها الصحفي ، فأذا تم احتلال الإنجليز لوادى النيل ، عاد الشقيقان إلى عملهما الصحفي وأعادا نشر الأهرام ، ثم قضى لهما قومسيون التعويضات الدولية المصرية المنعقد بالاسكندرية في يولييه ١٨٨٣ بمبلغ مائة وتسعين ألف فرنك تعويضاً عن الخسائر التى لحقتهما خلال الثورة العرابية (٢)

(١) محفوظات وزارة الداخلية - قلم المحفوظات ١١-٢-٩٤٦ الجزء الاول .

(٢) راجع الوقائع المصرية في ٢٠ اغسطس ١٨٨٣

وسليم تقلا مثال رائع للصحفي الذي يفنى في عمله ، فقد كان يقضى أيامه في الجريدة ، يعاون العمال في صف الحروف ويعلم المحدثين منهم وظيفتهم الجديدة في المطبعة ، ويكتب المقالات ، ثم يعود فيصوغ الأخبار وينقلها من أسلوب المخبرين النافه المردول إلى أسلوب عربي صحيح ، ثم يتولى كتابة أسماء المشتركين ، ولم يؤسه انصراف القراء عنها حيناً بعد حين ، وأخذ يعالج نقصها باستكتاب الكتاب المشهورين من أمثال الأستاذ الشيخ محمد عبده الكاتب المعروف ، كما استطاع أن ينال تأييد القنصلية الفرنسية كلها اشتدت به الأمور أو نزلت به ضائقة الإرهاب

ويبدو سليم صحفياً بارعاً في هذا التنظيم الرائع لصحيفته، فهي في صدر الصحف الشرقية عناية بالبرقيات الخارجية ، وهي برقيات روتر وهافاس ، وصحيح أن صحافة ذلك العهد عنيت جميعاً بهذه البرقيات غير أن الأهرام انفردت بالفن الصحفي فكانت للبرقيات مكانة الصدارة في الأهرام ، وليست كل البرقيات جديرة بالنشر ، لذلك كانت برقيات الأهرام النخبة المنتقاة بين برقيات الصحف جميعاً ، ويعود ذلك إلى فهم صاحب الجريدة للسياسة الخارجية فهماً سمح للأهرام دون غيرها أن تنشر في كل عدد منها بحثاً عن السياسة الخارجية سواء اتصل هذا البحث بمصر أو تركيا أو بأزمات أوروبا ومشاكلها في ذلك العهد ، وصاحب الأهرام لا يجارى زميلات صحيفته في العناية بالزخرف اللفظي أو الصور البيانية ، بل اختار لصحفه لغة الصحف ، وهي لغة صحيحة في عبارة واضحة ، خالية من السجع آفة الأدب والصحافة في عهد اسماعيل .

ولما صدرت الأهرام يومية في سنة ١٨٨١ أذاع فيها سليم تقلا دستورهما الجديد ، ولعله لا يزال معمولاً به في أهرامنا الحديثة ، قال إنه سيرفع من ألقاظها ما كانت تنعت به الموظفين كقولها « الوطنى الزيه - الهمام - النبيه -

الوجيه ، وما إلى ذلك من ألفاظ التقريظ والإكبار ، وستكتفى بالرتب الرسمية مثل « عزتو ورفعتلو » كما أنها ستعنى بذكر أنباء الزاهبين والعائدين من ركاب الدرجة الأولى والثانية في القطر الحديدية دون ذكر ألقابهم ، وأن الأسماء التي سيكون لها حظ الذكر عندها هي أسماء الباشوات والقناصل « والفيس قناصل » على حد تعبيرها كما أخذت على نفسها عهداً بالآلا تكتب مقالا في مدح إنسان ولا تلشئ آخر في ذم أحد

ثم قرر سليم أن يلحق بذيّل الصحيفة ترجمة طيبة لناحية من نواحي الأدب الرفيع في التراجم والقصص ، ثم مضى يعيد نشر هذا في كتب تصدر عن الأهرام وتباع للناس ، فساهم بتعريبه الكتب ونشرها في إذاعة لون من الثقافة العامة كانت مصر وبلاد الشرق العربي في أشد الحاجة إليه ، وكانت الأهرام إذ ذاك أوسع الصحف المصرية انتشاراً في البلاد الشرقية من حدود الهند إلى مشارف الأطلنطى

وتمتاز سياسة محرر الأهرام سليم تقلاً بالاعتدال في المسائل السياسية الداخلية ، ولم يعنف إلا في فترة الثورة العراقية وفي أعقابها ، ولم تتول الأهرام المعارضة العنيفة في مصر غير مدة قصيرة بين ١٨٨٤ و ١٨٩٤ ثم عادت إلى سياستها المعتدلة التي نشأها عليها صاحبها سليم ، غير أن صحفينا عني بجانب البرقيات والدراسات السياسية بمناقشة المسائل الاقتصادية مناقشة الخبير العالم بأصول الاقتصاد ، وخصص يوماً من أيام الأهرام لمراجعة النشاط الاقتصادي في مصر ومعالجة الأمور المالية معالجة قدمت محررها في هذه الناحية على جميع محرري عصره ، ثم أفرد المحرر جزءاً من صحيفته اليومية منذ نشأت الأهرام للنشر أنباء الشرق الأدنى ، وشرح مختلف نشاطه العلمي والأدبي والسياسي ، ولم تكن هذه السياسة الصحفية وفقاً على الأهرام وحدها بل أنها كانت سياسة مؤسسة آل تقلاً في صحفها « الأهرام وصدى الأهرام والوقت والحال » على التوالي

هذا هو نصيب سليم نقلا في المؤسسة الصحفية التي أنشأها هو وشقيقه ، غير أن سليما هذا الذي عودنا البحوث الرائعة في السياسة الدولية والاقتصاد المحلي والخارجي لم يقتصر على الجانب الصحفي في حياته ، فهو مفتن بحسه ونشاطه فقد كان من فتيان لبنان الذين تتلبذوا على الشيخ نصيف اليازجي وصاحبه ردحا من الزمن ، وله في النثر الفنى بعض الآثار الطيبة كما له قصائد في مدح الخديو إسماعيل نال بها عونه المادى وتأيدته الأدبى في توزيع الأهرام ونشرها في بيئات الموظفين ، وهو القائل في الأساطيل الحربية

تلك الأساطيل فوق الغمر سابحة والامر منها كسهل وهى كالقلل
دانت لهيبتها الأنواء خاضعة فحيثما قصدت حلت بلا مهل
وله في الدعابة شعر لطيف قال بعضه في التدخين

عدل التدخين قوم قد رأوا ييدى سيكارة أعشقمها
قال دعها فهى سم نافع قلت لا والله لا أعتقمها
إن تكن سما فاني محرق شرها بالنار إذ أحرقها
وعليه فاعذلوا أو فاعذروا فعلى الحاليين لا أطلقها

ثم له نثر رقيق غير ما أثر عنه من بيان في الأهرام ، كان في معظمه رسائل ونبد تاريخية وروايات معربة لم تطبع ، ومن أمثلة نثره الجميل تهنئته لصديق برتبة أنعم به عليها قال فيها : السيد السند أطال الله بقاءه . لا أدري أى الثلاثة أهنى ، إياك أم الرتبة أم نفسى ، أما أنت فبتساميك وإن كنت فوق مانلت ، وأما الرتبة فبشرفها لأنها دون من سعت إليه ، وأما أنا فلا فى أول مخلص لك ودك ، (١)

فصاحب هذا الحس الأدبى لم يقصر نشاطه على المجهود السياسى أو الاقتصادى بل فكر في نشر مجلة أدبية علمية تصاحب المقتطف وتسد فراغا كان المصريون

في حاجة اليه فقرر في سنة ١٨٧٨ نشر صحيفة عليية تسمى « المنارة » وحيت
الفكرة جريدة « الوطن » المعاصرة ، بقولها « قد سرنا ما بلغنا من أن صاحب
جريدة الأهرام قصد أن ينشر جريدة عليية تسمى المنارة فنهى حضرته
على هذا المشروع الحسن »^(١) وأعد أدباء مصر والشرق عدتهم لاستقبالها
والمساهمة في تحريرها إلا أن الحوادث لم توات صاحبها بتحقيق هذا المشروع
فانصرف عنه إلى نشر بعض المقالات الاجتماعية في الأهرام وملحقاتها من
قلبه أو من قلم أدباء الجيل .

وقد بقي سهم شقيقه بشارة محجوبا عن قارئ صحافة الأهرام ردحا من
الزمن ، ثم طلع علينا بشارة سنة ١٨٨٢ بأحاديث سياسية أخذ يرسل بها
الأهرام من باريس وغيرها من عواصم الدول الأوروبية الكبرى ، وهي
أحاديث نالها صاحبها من رؤساء الحكومات أو وزراء خارجيتها عن السياسة
المصرية ومشاكلها ، وكان هذا حدثا في عالم الصحافة الشرقية جميعا ، لأن
فكرة الأحاديث من هذا اللون لم تكن معروفة إلا في صحافة أوروبا ، لذلك
لم يجد بشارة بأسا أو ضيقا في الحصول على آراء ساسة العصر الأوروبيين
في شئون بلاده ، واستكملت الأهرام بذلك نقصا في الصحافة المصرية وسدت
فراغا كان ملحوظا ، ومنذ ظهرت هذه الأحاديث السياسية أخذ نجم بشارة
يسامى بنجم شقيقه سليم ، بل أن بشارة يعود إليه الفضل وحده حين عرفت
الأهرام في تجديدها الحديث يوم نقلت من الإسكندرية إلى القاهرة وخلفت
وراءها مطابعها القديمة واستقبلها القراء صادرة عن مطابعها الحديثة التي كانت
تنافس مطابع أعظم الصحف الغربية ، ثم أخذت تأتم بكل جديد أمدتها به
بشارة بعد أخيه ، فقد استقل بشارة باشا بأمورها وكبر في عهده حجمها
ثم أصدر في الإسكندرية (صدى الأهرام) لتسد الفراغ الذي تركه نقل الأهرام

(١) الوطن . العدد ١٥ في سنة ١٨٧٨

إلى القاهرة، ثم أنشأ في العاصمة صحيفة باللغة الفرنسية اسمها Pyramides حتى يقف الأجانب في مصر وخارجها على الحياة المصرية التي تعبر عنها جريدة الأهرام العربية للناطقين بالضاد في كل مكان^(١).

ولا تزال الأهرام تستوحي صاحبها المؤسسين كلها رانت إلى جديد أو أحست حاجة إلى تجديد، وكان ذلك الإحساس واضحا جداً في خلفيهما جبرائيل تقلا الذي ودعته الصحافة المعاصرة منذ أعوام.

ويعتبر جبرائيل تقلا في مقدمة الصحفيين الذين نقلوا الصحافة المصرية من جيل إلى جيل، فقد نشأ في أحضان والده وعمه صحفياً بطبعه، فإذا قضى الأب والعلم قامت على تشيئته أم رعت «الأهرام» كما كان يراها صاحبها، فبعثت مولدها إلى أوروبا يدرس ويتعلم، ثم إذا عاد قضى النهار وزلفاً من الليل في المؤسسة الصحفية تحت إرشاد أمه وتوجيهها، ثم تولى بنفسه العمل وأعفاها من مشاقه، فكان أول ما صنعه الرجل أن فكر في التحرير وقام فيه بثورة، هي ثورة لم يشهد لها مثيلاً أي جيل صحفى سابق؛ فقد كان المقال والتعليق عليه أهم ما تعنى به الصحافة المعاصرة، فرأى أن يقدم عليه الخبر وعين الخبرين للجريدة في سنة ١٩١٢، وتنحى المقال عن مكانه وتقدم الخبر عليه، ولم يكن ذلك شيئاً جديداً على صحافة مصر وحدها، بل كان شيئاً جديداً على كثير من صحف الغرب أيضاً.

ثم ثار الرجل مرة أخرى على أصول الطبع فاستغنى عن المطابع القديمة وغيرها بأخرى جديدة من مطابع «اللينوتيب»، وزاد صفحات الجريدة حتى بلغت في عهده أحياناً عشرين صفحة، وكان أول من جعل الحوادث مصورة وشغل معظم الصفحات بالصور، وأقام المراسلين في الخارج يوالون الأهرام بالأخبار والحوادث إلى جانب ييوت البرق الأخرى، فتميز عن

(١) تاريخ الصحافة العربية لطرازى ٣٠ ص ٥١.

معاصريه بهذا الجديد الذى لم يعرف فى صحافة مصر حتى جعله جبرائيل تقلا أصلا من الأصول الصحفية ، ثم كانت له ميزة قليلة فى الرجال ، هى حسن اختيار الرجال ! فقد انتزع من بينات المال والأدب كثيرين ممن ساهموا فى الصحافة عن طريق الأهرام ، وبزوا غيرهم وتقدموا الصفوف ، وفى الصدرة داود بركات وأنطون الجميل ، إلى جانب كثير من الشبان الذين اصطنعوا الصحافة مهنة لهم فبلغوا أعلى مراتبها فى مصر .

فثالث الثلاثة من آل تقلا قد استطاع فى الفترة التى رعى شؤون الأهرام فيها أن يجدد ويخلق ويتكرر مثلما صنع أبوه وعمه ، وضرب بذلك أحسن الأمثلة لغيره من الصحفيين حتى أضحت الصحافة المصرية بمثله وبجهوده فى مقدمة صحافة العالم ، ولن يكتب لصحافة مصر تاريخ حتى يكون لجبرائيل تقلا المكان الأول بين أعلامها الكبار .

أديب اسحق

ولد أديب إسحق في دمشق سنة ١٨٥٦ وتلقى في الشام دراسته الأولى حيث تعلم اللغتين العربية والفرنسية، ثم جدت عليه ظروف قاسية ، واستلزمته رقة حال الأسرة التي كان يعولها أن يعمل موظفاً في الجرك وهو في دور المراهقة ؛ ثم أخذت حياته تتطور من ضيق إلى ضيق حتى قضت أمور العيش أن يطوف بيروت ويقضى فيها ردها من الزمن ، وصل في أثنائه نفسه بأدبائها ، ولقي منهم وبينهم خيراً وعلماً وحداً على شبابه اليافع وتفكيره المعتدل ومزاجه الأدبي .

وشغفته حياة الشعر والأدب وهو أديب باسمه وطبعه ، وكان يميل إلى الأعمال الصحفية فتولى تحرير جريدة « ثمرات الفنون » وهي من أمهات صحف بيروت وكانت تديرها شركة ساهم فيها عيون الأدباء في لبنان ، ثم انصرف عنها إلى شقيقتها « التقدم البيروتية » يوليها من نشاطه وفضله شيئاً موفوراً ، وله في « ثمرات الفنون والتقدم » فصول ممتعة وقصائد من روائع الشعر، وشغل نفسه بالعمل الصحفي ووظف قلبه بجانب الصحافة في التأليف فأنشأ كتاباً سماه « نزهة الأحداق في مصارع العشاق » ويمتاز في كتابه هذا وفي فصوله السابقة الذكر أنه كان جديداً في هذا الميدان ، له أسلوب لم يعتده معاصروه لاني سورية ولا في مصر ، وكان لنشاطه الأدبي أثر ظاهر في الحياة الأدبية في الشام قربه إلى أدبائها ووضع من نفوسهم موضع التكريم ، واتصل آخر الأمر بجمعية زهرة الآداب وأصبح فيها من الأعضاء المبرزين ، وقدره رئيسها البستاني حق قدره ؛ حتى إذا أقبلت سنة ١٨٧٥ عمل مع جماعة من الأدباء في تصنيف مؤلف كبير سموه « آثار الأدهار »^(١).

(١) فيليب دي طرازي . تاريخ الصحافة العربية - ص ١٠٥ — ١٠٨

ثم انتقل إلى الاسكندرية في سنة ١٨٧٦ إذ كانت البلاد المصرية في ذلك الوقت تعيش في موجة تقدير وإعجاب من الشرق الأدنى ، وكان خديوها إسماعيل يشجع نهضتها الأدبية بماله وعطفه ، ويمدها برعايته وحده ، فأقبل الرجل على هذا المورد بكلياته ، فوجد زميلاً له هو سليم نقاش يقوم بفن التمثيل العربي ، وهو فن وليد في حياة المصريين ، فقام معه بتمثيل الروايات في حضرة إسماعيل ، وكان نشاطه في هذا الفن ملحوظاً إذ أمد المسرح بالروايات تأليفاً وتعريباً ، ومن الروايات التي عربها (أندروماك) عن راسين ثم عاد فترجمها مرة أخرى ، ونظم في خلال سطورها أبياتاً جديدة من الشعر الرائق ، ونشر هذا في كتاب له سماه « الدرر » مع رواية أخرى بعنوان « شارلمان » التي ترجمها في الاسكندرية وأعجب بها المصريون إعجاباً منقطع النظير^(١).

ثم سمع أديب بهذا النشاط الفكري الذي ملأ به جمال الدين الأفغاني جو القاهرة فقصدها سعيّاً وراء هذا النشاط فاتصل بجمال الدين وتلذذ عليه وقرأ في رحابه كثيراً من الأدب والفلسفة العقلية والمنطق ، وتوثقت الصلات بينهما فاقترح عليه الأفغاني أن يصدر جريدة عربية وكان العهد بالجهد الصحفي حديثاً ، فأعجبه الفكرة وأصدر جريدة « مصر » صحيفة أسبوعية ثم نقلها إلى الاسكندرية حيث استقبلها السكندريون مرحبين بالإقبال عليها مشجعين بالاشتراك فيها ، وقد ساهم معه في تحريرها سليم نقاش^(٢).

وقد امتازت جريدة مصر عن زميلاتها بأنها كانت ميداناً طيباً لأعظم كتاب العصر ، وفيها صال جمال الدين الأفغاني وجال ، ومهر مقالاته بامضاءه ولم يكن جمال الدين وحده يكتب فيها بل أن أصدقاءه وتلامذته كالشيخ محمد عبده كتبوا فيها ؛ ومن على صفحاتها عرفهم الجمهور المصري واتصل وده بهم^(٣).

(١) صبرى . La Genese de L' Esprit National Egptien ص ١٢٨

(٢) مشاهير الشرق ص ٢٠

(٣) صبرى المرجع السابق ص ١٢٨

والأصل في إصدار جريدة « مصر » الظروف السياسية المحيطة بها ، فقد قامت قبيل ظهورها حرب بين مصر وتركيا ، وقفت أوروبا فيها إلى جانب روسيا ووقفت البلاد العربية والإسلامية إلى جانب السلطان ، وجاءت الصحف إلى مصر من الغرب حاملة أنباء الحرب ومواقع القتال بين الفريقين المتحاربين ، وكان المصريون متطلعين إلى الحرب وحوادثها مترقبين نتيجتها ، فقد شاركوا فيها بالمال والرجال ، وكان الأجانب في مصر يقصون على المواطنين المصريين أنباء الحرب تملأ عما جاءتهم به صحف أوروبا ، فرأى كثير من خيرة المصريين لإنشاء الصحف الشعبية لإرواء ظمأ الجمهور وإشباع رغبته برواية حديث القتال ، وانقسم الصحفيون المصريون قسمين ، قسم مال إلى الروس بحكم الدين أو الخصومة السياسية مع السلطان أو إعجاباً بالمبادئ التي كانت تحارب من أجلها روسيا ، وهي الدفاع عن حريات الولايات العثمانية في أوروبا الشرقية ، وترغم هذا الفريق ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة « الوطن » التي نشأت في أعقاب هذه الحرب ، ومثل الفريق الثاني ، أي فريق السلطان ولكن في اعتدال صحفيين أديب إسحق في جريدة مصر التي أنشأها راوية لحوادث الحرب مع ميل ظاهر ملحوظ إلى جانب الأتراك^(١).

وفي خلال ذلك النشاط الصحفي رأى أديب أن حياة البلاد التجارية ونشاط البورصة والمحيط التجاري تنقصه عناية الصحف فأراد أن يخدم هذه النواحي بصحيفة تخصص لها ، فأصدر جريدة « التجارة » في سنة ١٨٧٨ وهي جريدة يومية احتفظت بصبغتها التجارية فترة من الزمن ، ثم مالت إلى الجدل السياسي كزميلتها مصر ، واشتد جدالهما مع الحكومة ، فأصدرت أمراً بإغلاقهما

(١) لدراسة هذه الناحية من التاريخ الصحفي المصري راجع « تطور الصحافة المصرية » للمؤلف وتاريخ الأستاذ الامام الجزء الأول .

لأنهما تجاوزتا المفهوم في ذلك الزمان^(١) ومن ثم فكر الوطنيون المصريون وعلى رأسهم شريف باشا في نقل كفاحهم السياسى من مصر وكافوا أدبياً ليكون رسوهم ولسانهم في خارج البلاد ، فاتجه إلى باريس وهى مقصد كل كاتب حر في ذلك الوقت ، وهناك أسس مجلة سياسية شهرية سماها « مصر القاهرة » ، ليعلن أعمال الغاصيين الذين يسمون حكماً ، وإحياء كتلة شرقية وليفتح العيون في غير تمويه ، على فعال الدكتاتوريين في مصر « الذين يستغلون أموالهم — يقصد أموال المصريين — وتنهب لصالح الأجانب »

وفى باريس لم يكن الرجل صحفياً يحدد نشاطه القاهرى لحسب ، بل أخذ يتصل بالبيئات الأدبية والعلمية والسياسية ، وقد تعرف على كثير من الفرنسيين ووصل جباله بجبالهم ، ثم استقبل عهداً صحفياً جديداً بنشر المقالات فى شتى الصحف الباريسية عن السياسة المصرية ، ثم عكف على المكتبة الأهلية بباريس ، وأخذ يطالع فيها شتى الكتب فى الأدب والاجتماع وفى خلال هذا الاعتكاف العلمى معنى ينشئ كتاباً سماه « تراجم مصر فى هذا العصر » غير أن هذا الكتاب الذى سهر على إنشائه فترة من الزمن ضاع ضمن ما ضاع من كتبه^(٢) .

وفى نهاية سنة ١٨٨١ أخذت الظروف المصرية الداخلية تتطور ، وبدأ حزب الوطنيون المصريين يشتد ويقوى ، وأصبح للعرايين نفوذ ملحوظ فى دوائر الحكومة فاستطاع أديب أن يعود إلى مصر ، وأن تحتمله وظائف الدولة فعين ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، وسمحت له السلطات الحكومية بإصدار جريدته القديمة « مصر » على شكل كراسة صغيرة ، وقد اشترك معه شقيقه الذى تخصص لإدارتها ، ثم قامت الثورة العرابية وأخذت

(١) مشاهير الشرق ج ٢ ص ٧٠

(٢) فيليب دى طرازى ، تاريخ الصحافة العربية ج ٢ ص ١٠٥ — ١٠٨

الأمور المصرية تضطرب اضطراباً شديداً ، فهاجر فيمن هاجر إلى بيروت ثم عاد إلى الديار المصرية فيما بعد ، وأخذ يتنقل بين مصر والشام إلى أن وافاه أجله وهو في ريعان الشباب .

هذا عرض موجز لتاريخ أديب أسحق أما أديب كرجل وثيق الصلة بالفن الصحفي فقد ظهر ذلك واضحاً في جرائده ، إذ كانت صحيفته (مصر) في مقدمة الصحف السياسية من حيث نضج التفكير وسلامة التعبير ، شغل كل عدد منها بمقال في السياسة الداخلية أو الخارجية ، ونشر فيها على التوالي رواية فرنسية معربة وعرض فيها لمعانى الأوروبيين وأسلوبهم في تناول الحياة ، وقصر صفحة منها للعناية بشئون بلد شرقي ، وتوزعت الأخبار الداخلية في بقية صفحاتها ، أما البرقيات فكانت قليلة جداً بالقياس إلى زميلاتها المعاصرات وكانت مصر في إيجاز لساناً للمتطرفين المصريين وعنواناً للكفاح من أجل الديمقراطية وحرية البلدان الشرقية ، كما تميزت بأنها كانت على رأس الصحف الوطنية في عهد اسماعيل ، وقد تفردت بنضج تفكير محرريها السياسى واستوائه بالقياس إلى غيره من الصحفيين ، وكانت نعم السند للديموقراطية المصرية ؛ إذ مضت تنشر أخبار مجلس شورى النواب ، وتدفع أعضائه إلى أشرف المواقف وتدعوهم إلى واجب الجهاد ، وتحمد لهم مواقفهم السكرية كلباوقفوها وتحدث عن رجوليتهم في شيء من الغبطة وتعلن عنها أحسن إعلان ، وتنشر قراراتهم الخطيرة في غير تهيب أو تردد كشكواهم التي رفعوها إلى الخديو « من انتهاك حرمة المجلس » حين ذهب رياض باشا لفضه ، ثم تعلق على ذلك بقولها إن الخديو وولى عهده والمواطنيين جميعاً قد رأوا في غير النواب ما يعيهم على تعميدهم في « ما اتندبوا له من المحاماة عن حقوق الوطن » ثم تقول عن الحكومة الوطنية العادلة « بأن لاحول ولا قوة لها إلا بالريعية ومن الرعية ، ولقد أجاد حكيم الفرنسيين حيث قال كل شيء من الأمة وفي الأمة والأمة »^(١)

ومصر تقف بالمرصاد لخصوم الدستور من أمثال الشيخ حمزة فتح الله محرر (البرهان) في سنة ١٨٨١ ، إذ دعا الشيخ إلى حكم الفرد في يوم افتتاح مجلس النواب فكتب أديب اسحق مقالا رائعا عن هذا اليوم افتتحه بيت من الشعر

صفحة لأصرف الدهر عن هفواته إن كان هذا اليوم من حسناته

« كيف لا وهو حاجة النفس وأمنية القلب منذ توجه الخاطر إلى السياسة الوطنية وانصرف العزم إلى إحياء الهمم وانعقدت النية على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة في القيام بالواجبات ، وهو النشأة التي كست الوطن رداء الفتوة قشيبا ، وهو البغية التي غرست للامة غصن الأمل رطيبا ، وهو مارجوناه زمانا ودافعنا الزمن فيه ، وتمينناه أعواما وغالبنا الحدثان عليه . . . فباحسنه من يوم رد فائت البهاء وأحيا مائت الرجاء وأعاد شباب الامة ، وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيد مساعي الوزير ، وقضى لبانات النبهاء ، وحقق أمانى النزهاء ، فلا زال مشرق الشمس مرفوع لواء الانس ، منقوشا على صفحات الصدر بأحرف من نور على توالى الأيام والدهور » .

ثم يتحدث أديب عن الحزب المصرى وأمانيه في الحياة ، وأنه « يريد أن يكون المصرى في مقام الإنسان مستقلا بوجوده متمتعا باستقلاله ، فائزا بحقوقه ، ناهضا بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيوان يساق للحرث فإن عجز فللسلخ ، ويطلب أن يكون الوطنى آمنا في داره ، مساويا لجاره ، يستغل زرعه ويستأجر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريبا في آله ، مصادرا بماله ، يطعم من يحرمه ويؤمن من يرعوه ويحفظ من يضيعه »^(١).

أما جريدته التجارة ، فقد وقفها أول الأمر على شؤون التجارة ، وأعلن ذلك في برنامج نشره في العدد الأول منها قائلاً : رأينا أن نخدم أهل التجارة الوجهاء السكرام في هذه الديار بصحيفة يومية تجارية نضمها صحيح الأخبار ومفيدها ، ثم عدد موادها وهي البرقيات التجارية وأخبار البورصة وحركة السياحة في الإسكندرية ومواعيد البريد والحالة الجوية والبرقيات السياسية إلى أن يقول : رأينا أن نعين فيها عموداً واحداً لنشر الأخبار المتنوعة والفكاهات الأدبية ، وما يرد إلينا من المراسلات والطوائف التي تجمع إلى الفائدة لذة معنوية وعموداً آخر لكتاب جزيل الفائدة ، وهي هنا مرجع من أعظم المراجع التي يقصدها الباحث عن النشاط التجاري في عهد الخديو إسماعيل وفيها لون من التخصص لم يكن معروفاً في كثير من صحف الشرق الأدنى خلال القرن التاسع عشر ، ثم امتازت صحيفته هنا بنشر أخبار روتر وهافاس بل أنه أجرى اتفاقاً مع شركة روتر هو أول حدث في الصحافة الشرقية المعاصرة ، فقد نشرت التجارة في أول يونيو سنة ١٨٧٨ يانا جاء فيه : أنه بناء على اتفاق حصل بيننا وبين إدارة تليفرافات روتر المهمة في الاسكندرية قد حصل لنا دون سوانا حق تعريب تليفرافات روتر التجارية والسياسية الواردة إلى هذا الشجر فمن عرب دوننا هذه التليفرافات أو شيئاً منها ونشره معرباً يكون مسؤولاً عن ذلك بحكم القانون وبموجب الاتفاق ،^(١) فهو إلى جانب العمل الصحفي يستأثر بناحية صحفية عرف قدرها وخطرها ، ولها آثارها الأدبية والمادية ، أو لم يطل تخصص (التجارة) لشؤون التجارة بل ازدلفت إلى السياسة وأخذت تنافس في ذلك شقيقتها مصر ، ومضت تتحدث عن الظلم والعسف ، وأخذ أسلوبها يتطور وينساب إلى العنف رويداً ثم حثيثاً ، وخرجت بذلك عن طابعها المشهور ، ولكن في أسلوب

(١) التجارة عدد ١٣ في أول يونيو ١٨٧٨

رفيع وعبارة مهذبة حتى إذا عطلتها الحكومة أسبوعين ^(١) كتب محررها أديب اسحق بياناً غاية في جمال المعنى وروعة الإنشاء جاء فيه « واثق ساءنا أن جامنا ذلك الإخطار بلوم وعقاب أليم ، لقد سرنا أن تكون الجرائد موضوعاً للنظر ومجالاً للنقد ، ولم نر في القصاص شيئاً يستعين به اللائيم أو مصاباً يعتضد به الشامت ، فأن التجارة تحسب حب الوطن ديناً والمدافعة عنه جهاداً ، فأن عاشت فيه فهي سعيدة وإن ماتت فهي شهيدة ، ولقد آتاه الله النعمتين وأتاح لها الحسنتين ، فعاشت به وماتت عليه ، وستبعث بعد أسبوعين رافلة في ثوب الشهادة مزينة بحلى السعادة على رغم أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا إلى مالم نقصد ، وسعوا فيها بما لم يخطر على قلوبنا ، وحاولوا إطفاء نور الحق ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » ثم تمضى بعد أسبوعين عنيفة قوية ، تعنى بالسياسة عنايتها بشؤون التجارة حتى عطلتها الحكومة فيما بعد .

وقد بلغ أديب أسحق أوجه في صحيفته « مصر القاهره » ، التي كتبها بخط يده أو بخط مساعده عبدالله مراش وطبعها في « باريس تحت سماء الحرية » لشر ما يعود بالنفع على البلاد العربية ، وهي صورة لجريدته مصر في القاهرة ، من حيث أسلوبها الممتاز حقاً ، الغنى بالجمال الفني ، المملوء بروح السكفاح ؛ وهو يعلن خطتها في قوله « إني لا أقصد الانتقام وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله فسلكي أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متجافياً عن التعريض والتلبيح وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوى النقد . . . ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين وأحيي الغيرة في قلوب العارفين ليعلم قومي أن لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ، وما لا منهوباً فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسوف وينبذوا عنهم كل مدلس

يشترى بحقوقهم ثمنًا قليلًا ، ويذيقوا الخائنين عذابًا وييلا ؛ وليستصغروا
الأنفس والنفائس في جنب حقوقهم ؛ وليستهيتوا في مجاهدة الذين يبيعون
أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلم ، إلى أن يقول « فن قتل دون دمه فهو
شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ومن عاش
بعد هؤلاء الشهداء فهو سعيد » .

وتستغرق حدة المزاج هذا الأسلوب ، كما تظهر خطته واضحة صريحة ،
فقد وقف الكاتب قلبه على إثارة « الحمية الشرقية وإهاجة فضالة الدم العربي » ،
وهو يرى الشرق كله جزءاً واحداً ويسمى أهله « قومي » ، وهي نظرة كانت
تراها مصر في ذلك الوقت وينادي بها اليوم كثير من أدباؤها وساستها وصحافتها
بيد أن أسلوبه هنا كان أسلوباً صحيح العبارة مستقيماً ، يمتاز بالعنف والشدّة
دون أن يكبو بلفظ ناب عن الأدب الصحفي ، وهو في مقدمة الصحفيين
الذين امتازوا بثقافتهم الغربية مع حرص شديد على عبارتهم العربية .

عبد الله النديم

كان في ريعان شبابه لما ذاع اسمه وعرف الناس فضله ، ولم يكن في مقدوره أن تمر بحن مصر في نهاية عهد إسماعيل وقبيل الاحتلال دون أن يكون له فيها تاريخ ، وهو صورة من صور الثورة العربية البديعة ، لم تكن نشأته على يسار ، ولم تكن دراسته على انتظام ، فهو فقير يوم ولد ، أديب لا يستقيم مع الدرس المنظم ، فلم يقرأ أو يتأدب بأساليب المدارس والمعاهد بل مضى في دراساته فريداً بعد تلمذة قصيرة الانتظام ، ثم أخذ يكتب ويشعر ويترجل وهي كتابات لم تخل من مرح أو استخفاف بحوادث الزمن ؛ ولم تكن هذه الفنون في أول الأمر مهنة يكتسب منها صاحبها فاضطر إلى أن يعمل (تلفرافيا) في عاصمة القليوبية وفي القاهرة فيما بعد إلى أن أحفظه خليل أغا صاحب الكلمة في ذلك العصر بغلظته وقسوته فراح مرتحلاً هنا وهناك يعلم أولاد الأعيان إلى أن نزل بمسقط رأسه أخيراً ؛ وهي مدينة الاسكندرية وهنا انضم إلى الساخطين من أنصار مضر الفتاة ، ثم اعتزل سياسة الحفقاء ووصل حباله بحبال أديب أسحق وسليم نقاش وكتب في صحيفتيهما «مصر والتجارة» وألف القصص التمثيلية ، وأشاع في بيئة الفقراء حساً وروحاً بإدارته «الجمعية الخيرية الإسلامية» ومدرستها التي أنشئت لتعليم الأيتام وأبناء المعوزين^(١) ثم يعمل صحفياً في المهنة المحببة إلى نفسه ويأتي في تاريخ الصحافة العربية بجديد ، فينشئ صحيفته «التنكيك والتبكيك» ، في ٦ يونيو ١٨٨١ في حجم

(١) لدراسة تاريخ عبد الله النديم الصحفي ، راجع في ذلك «تطور الصحافة المصرية»

كتاب عادى « صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية .. هجوها تنكيت ومدحها تنكيت » ولقتها كما يقول « لا تلجئك إلى قاموس الفيرزبادى ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، وسخريتها « نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا ، وكانت صحيفته هذه على ود متصل بصحيفة « الجنان » لبطرس البستاني وأيد الصفيان هذا الود فى تبادل المقالات بين الصحيفتين .

وتمضى الثورة العراقية فى عنفها ويلقى النديم بدلوه فى نواحيها خطيباً وكاتباً من أعز خطبائها وكتابها ، وينشر صحيفة ثورية يسميها « الطائف » ولم تبلغ صحيفة من الصحف مبلغ طائف النديم لافى مكاتها ولا فى خطرها ولا فى تحريرها ، وهو فيها كاتب حاد الطبع نابغ فى الإنشاء ، اقتصر فى تحريرها أول الأمر على معالجة نواحي النقص الاجتماعية فى مصر ، وهو يصل هنا نشاطه الصحفي الذى بدأه فى جريدتى « المحروسة والعصر الجديد » التى كان يصدرهما سليم النقاش وجاء فيهما بالمعجب والمطرب كما يقول المؤرخون ثم انتقل صحفيينا من المقالات الاجتماعية إلى الموضوعات السياسية العميقة وتفرد بالأخبار الهامة التى كانت للصحف الأخرى مادة ومورداً ، ووقف الكاتب يراعه على الدفاع عن الثورة ورجالها وتكذيب ما ينشر عنها فى صحف الخارج ، وقد احتفى به العراقيون فاشترك فيها النواب بمبالغ كبيرة ، وأصبحت لسانا فيه من العنف والشدة ما اضطر الشيخ محمد عبده رقيب المطبوعات العربية والتركية إلى تعطيلها شهراً ، وقد اتخذ عطف الهيئات النيابية عليها لونا رسمياً نذكر تفاصيله لأنه نادر فى صحافة الشرق والغرب على السواء

كتب محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب فى ١٥ ربيع الثانى فى سنة ١٢٩٩ هـ إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضر تلى » يقول « حيث أن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه وما يتبع ذلك مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجلس رؤى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية

لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات بمعرفة هذه الصحيفة بمنازعة بهذا الاختصاص ونسبتها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها الموما اليه ، وسمتها الصحف المعاصرة بعدئذ الصحيفة « الشبيهة بالرسمية » ، وحيد هذا الاختيار أديب إسحق فى صحيفته مصر لأن الطائف فى اعتباره جريدة « موصوفة بالوطنية معروفة بصدق النية ، منتشرة نافذة الكلام خطيرة مرعية المقام » ، وقد استطاع عبد الله النديم بهذه الرسمية التى اكتسبها صحيفته أن يكون على بينة من شئون الدولة وأن يجد فى عطفها المادى والأدبى ما يعينها على تخطى المصاعب التى تعترض الصحف عادة وتحول دون تقدمها ، وهذه ميزات بجانب قدرة محررها ومطابقة البيان له تجعل لها مكانة خاصة بين الصحف المصرية خلال الثورة العرابية .

وامتاز عبد الله نديم فى المدة الأخيرة من تحرير الطائف بهذا العنف الذى بلغ حدا خرج بالأديب الكاتب عن آداب المناظرة فأسف فى المقالات التاريخية التى كتبها عن بعض عظماء مصر إسفا فظهر فيه الغرض واضحاً حين أقعده المرض عن الكتابة إلا هذه الفصول التاريخية فقد اعتبر نشرها علاجاً بما هو فيه من داء ، وقد ضجرت منه الحكومة لأنه أخرجها بما كتب فعمطت جريدته فترة أخرى من الزمان

وقد أبى السيد عبد الله النديم على وفائه للثورة والثوار ، وعمل تحت رايتهم مؤمناً باتجاههم وعنفهم ، وانتقل بصحيفته إلى ميدان الحرب لما وقعت بين العرابيين والإنجليز ، ومضى هناك يحرق الطائف فى معسكر « كنج عثمان » ، ومقالاته جميعاً على وتيرة واحدة ، وقصد بها إثارة الهمم ، والظعن فى خصوم الثورة ، وعن صحيفته نقلت صحف القاهرة أخبار الحرب وتفاصيلها ومقالات النديم ، ثم دأب صحفينا على نشر ملاحق للطائف يذكر فيها مساوئ خصومه سواء من الصحفيين أو من غيرهم ممن يشتغلون بشئ الوظائف فى حياة مصر المختلفة ، وفى هذه الملاحق من الهجو المقذع ما تحلل فيه السكاتب بين أسلوبه

الرفيع وأسف أحياناً إسفافاً منقطع النظير ، ومثل بذلك اتجاه العراقيين المتطرفين وبقي كفؤاً ونداً قاسياً لصحفي الاسكندرية التي كانت لها صحافة تخاصم الثورة وتهاجمها

ثم أخفقت الثورة العراقية ، وفر من فر وحوكم من حوكم ، ولم يستطع المسئولون أن يعرفوا أين ينزل النديم بين عالم الأحياء أو الأموات ، بيد أنه كان في القطر المصري وأمضى في اختفائه تسعة أعوام متكرراً في شتى الأزياء ، وعرف الكثيرون شخصيته غير أنهم أبقوا على سره بالرغم من ترصد الحكومة له وتقديرها مكافأة مالية ضخمة لمن يرشد إليه ، ثم اعتقل في أخريات عهد الخديو توفيق ، وأثار اعتقاله ذكريات الثورة من جديد إلا أن الخديو عفا عنه على شريطة أن يهاجر إلى أى بلد خارج القطر المصري ، فاختار المترجم مدينة يافا ونزل فيها عند مفتيها مكرماً معززاً بين مواطنيها من كرام الفلسطينيين ، وأخذ يطوف بتلك البلاد ومدنها فرار معظم الجهات الفلسطينية ، وفي تلك الأثناء قضى توفيق وتولى الأريكة الخديوية عباس الثاني ، فعفا عن النديم وأذن له بالعودة إلى مصر

عاد خطيب الثورة وكاتبها ولم يكن في مقدوره أن يكافح من جديد بنفس الأساليب القديمة إلا أنه أصدر صحيفة أسبوعية « علمية تهذيبية فكاهية » سماها « الأستاذ » وكان ذلك في أغسطس سنة ١٨٩٢

وقد اشترك عبد الله نديم في إخراجها مع أخيه عبد الفتاح نديم ، وقدم لها الأخير في العدد الأول بقوله « عقدنا العزيمة على إصدار هذه الجريدة المسماة بالأستاذ كل أسبوع مرة . وجعلناها خزانة لشوارد العلوم وفوائد الرسوم ولا تنقيد بفن ولا تقتصر على موضوع . فتشتر ما يحسن نشره ويلذ سماعه من المعقول والمنقول بما لا يطعن في دين ولا يمس شرف شخص ولا يقرب من الأهاجي . ولا تتعرض للأمور السياسية الحاضرة أى أنها لا تتكلم في الإدارات والأعمال والعمال سواء في ذلك الداخلية والخارجية . وأما فن

السياسة من حيث هو فإنه يدخل في موضوعها العلبي . فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدير الممالك ووحدة الاجتماع العالمى من الفروع السياسية وهى مستقلة عما يتعلق بالسياسة الإدارية . والحامل لى على فتح هذه الجريدة أنى رأيت شقيقى الفاضل السيد عبد الله افندى النديم المنشئ الشهير قد قضى مدة اختفائه مشتغلاً بوضع كتب لا تخلو من الفوائد لما اشتملت عليه من الابحاث العلية . فاستأذنته فى نشرها لإتمام خدمته المقصودة له من تأليفها فرخص لى بنشر عشرين كتاباً منها بما تم تحريره وتنقيحه . ومع كونى اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة فأنى وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلبه لسهولته ،

ومع أن النديم عاجل الشئون الوطنية فيها برفق ودعة إلا أن معانيها لم ترق المسئولين وأصحاب السلطان فى ذلك الوقت وخاصة أنها لقيت رواجاً من جميع الطبقات فاق جميع الصحف الأسبوعية إذ ذاك فأمرت الحكومة بتعطيلها وادعى خصومه أنه يثير مشاكل التعصب ، ووجوده خطر على وحدة البلاد ، فطلب اليه مبارحة مصر ، وكتب فى ذلك وداعاً نثراً وشعراً هو آية مايكتب مواطن فرض عليه الاغتراب عن مواطنيه فنزل عبد الله نديم مرة أخرى مدينة يافا ، غير أن سعاة السوء أو غروا صدر السلطان عبد الحميد عليه فأمر بإبعاده عنها فعاد إلى الاسكندرية إلى أن توسط له رجال السلطان فرضى عنه وفتح له صدره فى الآستانة وعينه فى وظيفة من وظائف الدولة فكان يمضى معظم وقته فى حضرة صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغانى ، وتمكنت أواصر الود بينهما حتى صرح الأفغانى بأنه « مارأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة المعارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعاً محكما بأزاء معانيها إذا خطب أو كتب ، وقال فيه بعض معاصريه « إن شعره أقل من نثره ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا ، وقد عاش بقية العمر غريباً عن وطنه وأهله حتى نزل به قصاء الله فى أخريات سنة ١٨٩٦

على يوسف

شخصية من أبرع الشخصيات الصحفية في الشرق العربي ، شغلت العالم الإسلامي حقبة من الزمان كانت زاخرة بالمشكلات والأحداث ، فالشيخ على يوسف قطب من الأقطاب الذين عاصروا تطورات الشرق في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهو تلميذ مدرسة وأستاذ مدرسة ، هو تلميذ الشيخ جمال الدين الأفغاني في الصحافة أيام إسماعيل وصدر حكم توفيق ، صاحبه أياماً ونشر بعض المقالات في صحافة ذلك العهد ، فهو تلميذ نشيط فرض وجوده في بيئة الوطنيين المغامرين ، وهو مع ذلك أديب عرفه الشرقيون في صحيفته « الآداب » ، وهي صحيفة تخصصت للآداب والفنون ، ووهب لها الشيخ شبابه في خدمتها وتوفر عليها سنين وكانت الآداب تصدر أسبوعية في ثمانى صفحات متوسطة الحجم ، وكان أول صدورها في سنة ١٨٨٧ ، غير أنها مضت متعثرة الخطى فيوماً تصدر ويوماً تغيب عن قرائها ، وقد أفنى فيها الشيخ على يوسف وقته جميعاً ، ووقفها لبحوث دقيقة في التاريخ والعلم والآداب ، ولم تعمر طويلاً بالرغم من الجهد المبذول في إخراجها سواء اتصل هذا الإخراج بالشكل أو الموضوع ، وأكبر الظن أن اتجاه صاحبها بها إلى ذلك الأسلوب العربي القديم أثر عليها كصحيفة للجمهور يصعب عليه مطالعتها في زمن بدأت الصحف والمجلات تترضى القاريء بالنزول إلى مستواه في كثير من الأحيان ثم لاحت في أفق مصر أحداث استوجبت إنشاء صحيفة سياسية في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ فأصدر الشيخ على يوسف جريدة « المؤيد » ، ومن أهم أغراضه فيها كما يقول « بث الأفكار المفيدة والأخبار الصادقة والمبادرة إلى نشر الحوادث الداخلية من باب الاعتبار والتحذير أو الترويح والتبشير غير

تاركة شأن التجارة الداخلية والخارجية،^(١) وهو يسوس صحيفته في هراة وتودة، ويحتل هذه السياسة المكانة التي كانت لجريدة «العروة الوثقى» في باريس لصاحبها الأفغانى ومحمد عبده، وبذلك أصبحت «المؤيد» مجالاً للأقلام الوطنية الناشئة في البيئة المصرية، فكان مصطفى كامل أحد كتابها المعروفين، وقد ذاع أمرها واشتد ساعدها وعالجت الموضوعات المصرية والإسلامية في مقالات طويلة كما حملت على الاستعمار أياً كان لونه أو مداه وخاصة إذا اتصل بالمسلمين في أى مكان من الأرض اتصال الظالم بالمظلوم^(٢).

وصحفيها يقيم خطته في أول الأمر على الدفاع عن الشرق والإسلام وبخاصة الإنجليز، أما عن الأولى فقد أيد تاريخه فيها صدق عاطفته لشرقيته وحرارة إيمانه بإسلامه وأما الثانية فقد ارتد عنها مؤمناً بصداقة الإنجليز، مؤثراً هذه الصداقة لمصر على صداقة السلطان وحكومته، وقد غلا غلواً خطيراً في النظر إلى الأمور الدينية حتى خلق في البيئة المصرية خلافاً بين المسلمين والمسيحيين سواء كانوا من المواطنين المصريين أو النزلاء الأجانبين وكان الإيطاليون أكثر الشعوب محلاً لخصومة الشيخ على يوسف فهو يحمل عليهم يوماً بعد يوم وهو القائل فيهم «إن أمة الطليان أخس الأمم وأدناها وأسفها وأسفلها» بينما يرى الرجل أن صداقة الإنجليز واجبة لأنهم يضعون ما يختلفون عليه محل النظر والاعتبار ولا يتعصبون لجنس أو دين لذلك قالها كلمة هزت الرأي العام المصرى هزة عنيفة «إن لندرة يجب أن تكون كعبة المصريين السياسية» واحتمل بذلك خصومة مصطفى كامل والمتطرفين في مصر، ومع ذلك كله استطاع الشيخ على يوسف أن يساهم مساهمة الأصيل في السياسة المصرية العامة ومضت صحيفته توزع أربعين ألف نسخة على حين كانت أعظم الصحف انتشاراً لا توزع أكثر من أربعة آلاف نسخة،

(١) المؤيد في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩

(٢) المؤيد في ١٤ فبراير ١٨٩٢

وكان نصف ذلك العدد من المؤيد يوزع في بلدان الشرق العربي^(١). ويرجع هذا النجاح الصحفي إلى شخصية الكاتب وقدرته وإخلاصه لصحيفته وفنه ، حتى شهدت له The Egyptian Gazette بقولها « قل أن يوجد بين الصحفيين من استطاع الوقوف إلى جانب صاحب المؤيد ولا يوجد ذو مسكة من العقل لا يضع الشيخ على يوسف في أعلى طبقة من طبقات رجال الصحافة ، فانه تمكن بالجد والاجتهاد والمثابرة من إيصال جريدته إلى درجة « التيمس » لا في العالى العربى فقط بل في جميع العالم الاسلامى ،

وليس الشيخ على يوسف كما تقول الاجبشيان جازيت صحفياً ممتازا فحسب فقد بنى مجده الصحفي منذ شبابه وبلغ فيه مراتبه العليا في مجلة الآداب والمؤيد اليومي والمؤيد الاسبوعى الفرنسى ، وبما أنشأ من تنظيم لمؤسسته الأخيرة وما أعد لها من محركات كهربية لإدارة مطابعها ، وهو أول حدث من نوعه في مصر ، غير أن للشيخ على سمة ظاهرة في تاريخه الصحفي ، فهو مناضل في سبيل توزيع المؤيد بكل الوسائل في جميع البلاد الإسلامية مهما تحاربه السلطات الوطنية والخارجية ، وهو بطل القضايا الصحفية في مصر ، بطلها في ناحتيتها السياسية والاجتماعية لثلاث وعشرين سنة في كفاحه الصحفي العريض لقد شغل الشيخ على يوسف رأى العام المصرى بقضية التلغراف ، وهى برقيات نشرتها المؤيد عن الحملة العسكرية في فتح السودان ، وأثارت هذه البرقيات عاصفة من النقد للسياسة العسكرية الجارية إذ ذاك ولم تثر العاصفة بين المصريين وحدهم بل بين زملائهم وشركائهم الإنجليز ، وأثبتت هذه القضية أن وسائل الإخبار في الجريدة وتسقطها لها تفوق جميع الوسائل عند الصحف

(١) تطور الصحافة المصرية للمؤلف . راجع الفصلان (الصحافة المصرية منذ الاحتلال إلى الاتفاق الودى والصحافة المصرية منذ الاتفاق الودى إلى الحرب العظمى) ففيهما التفاصيل التى صورنا بها الشيخ على يوسف كعلم من أعلام الصحافة العربية .

المعاصرة جميعا ، ومن هنا جاء إعجاب الناس بها ، واستطاع الشيخ أن يتصدر الصحفيين فى الفن الصحفى والتحرير السياسى

ثم يشغلنا الشيخ على يوسف بقضية اجتماعية تضع الصحافة والصحفيين موضع التجريح وتنشأ بها مجادلات فقهية ودينية تمس مهنة الصحافة فى الصميم بل إن هذه القضية التى شغلنا بها الشيخ تصرف الناس فى مصر عن جميع المشكلات السياسية والخلافات الحزبية ؛ لأنها قضية مست الأخلاق فى عرف العصر وأصبحت محكا للتطور الاجتماعى بين القديم والجديد

كانت قضية الشيخ على يوسف قضية عامة ، للعنصر الشخصى جانب كبير فيها ، وكان للسياسة جانب آخر . كما كان للحياة الاجتماعية التى عاشتها مصر إذ ذاك أثر كبير جداً فى تكييفها وتحليلها ، ونال الصحافة منها فى الدوائر الشعبية والرسمية حظ موفور ، أما العنصر الشخصى فى هذه القضية التى شغلت مصر و صحافتها فهو أن الشيخ على يوسف رأى أن يتزوج ابنة السيد عبد الخالق شيخ السادات الوفائية ، ورأت السيدة هذا رأى ، فانعقد عزمهما على إتمام هذه الزيجة دون علم شيخ السادات الذى عارض الفكرة وثار لتنفيذها بالرغم من إتمام العقد على الصورة التى يرضاها الشرع وضمن الحدود التى يرسمها الدين الاسلامى ، غير أن والد العروس أبى الواقع الذى تم فأقام الدعوى أمام المحكمة الشرعية ليحال بين ابنته وبين زوجها بحجة أنه دونها فى النسب والحسب ، ولأنه يشتغل فى مهنة لا يكرم بها صاحبها أى مهنة الصحافة .

هذا هو ملخص القضية التى تشهد لها المحاكم نظائر فى كل يوم ولا يحس الجمهور بها ، وليكن قضية صحفيينا أصبحت لمكانته الخاصة فى عالم السياسة والصحافة قضية عامة ، وكانت معظم الصحف المصرية والرأى العام المساق فى جانب شيخ السادات ، وكانت الحكومة المصرية فى جانب الشيخ على يوسف وهى صورة معاكسة لقضية (التلغراف) التى كانت الحكومة فيها خصما

للشيخ والجمهور صديقاً ومناصراً ، وقد حاولت السلطات الحكومية أن تحول دون الفصل بين الزوجين وتنفيذ قرار القاضى بالتفرقة ، وكاد قاضى القضاة التركي يشير أزمة حادة في دوائر القضاء ، ويقف القضايا الشرعية جميعاً ويغلق أبواب المحكمة لولا أن الحكومة نزلت عند أمره وحالت بين الزوج وزوجته (١)

هذه القضية مزاج غريب من الحياة الاجتماعية والسياسية . فإن حادث الزواج وأسلوبه فضيحة في نظر الرأى العام إذ ذاك ، بل هو فضيحة في نظر الرأى العام في أيامنا الحاضرة ، وإن كانت شرائط العقد قد تمت على الصورة التى يقرها الشرع والدين ، ولم تجرؤ صحيفة عربية من الصحف الموالية للاحتلال على الدفاع عن الأسلوب الذى اتبعه الشيخ في قرانه من ابنة السادات ، ولم تتدخل صحف الأقباط في هذا الموضوع لأن له بالدين الإسلامى أوثق الصلات ، ولم تناقش صحيفة من الصحف مسألة الحسب والنسب التى تنزل بكفاءة رجل له مكانه في مصر لأنه يتزوج ابنة حسيب نسيب .

ويرى المؤرخ ، في موقف بعض الصحف الإسلامية في هذه القضية بعض الهنات التى كان يجب أن تتنزه عنها فهى قضية خاصة لا يليق أن تكون مثاراً للمجادلة على صفحات الجرائد ، ثم هى قضية صحفى يلغى لزملائه أن يحترموا من أجل المهنة كرامته ، ثم إن الصحافة باعت في سوق نافقة فكسبت رضا الرأى العام ولم تفكر في رأى حر تذيبه خشية سخط الجماهير ، وليست صحافة تلك التى تخاف سخط الجماهير ، وهى بموقفها هذا قد سمحت للسلطات القضائية برأى فيها مهما يكن أمره فهو رأى يسوءها ، وهذا الرأى هو أهم ما يعيننا في تاريخ هذه القضية .

يذكر محامى السيد شيخ السادات أن « الصحافة لا تشرف إلا بشرف استعمالها ، وهذا تقرير صحيح لولا أن المحامى يعتبرها مع ذلك « حرقة دينية »

ويقول لتأييد ما ذهب إليه « أليست عبارة عن الجاسوسية العامة وهي معدة للإشاعة وكشف الأستار وهذا أمر منهي عنه شرعاً فضلاً عن نشرها الإعلان عن الخنز وأمكنة اللهب » هذا رأى محامى السادات وهو رأى يسوء الصحف جميعاً ، فهي عنده « حرفة دنيئة » مهما يعتذر عنها بشرف الصحفي وعلو همته لأن الصحافة عامة تشترك فيما نهى عنه الشرع وهو إذاعة الأخبار وإشاعتها بين الناس ، وهي فى أكثرها تنشر إعلان الخنز وأخبار الملاهى وممتدياتها ، وفى هذا من الاتهام الصريح ما كان يجمل بالصحافة المصرية أن تتكاتف على رده مهما تختلف نزعاتها السياسية واتجاهاتها العامة حتى لا تعطى المحكمة بعد المحامى فرصة لتأييد وجهة نظر المدعى وخط قدر الصحافة .

وإذا دافع الشيخ على يوسف ومحاميه عن مهنته وعن علو ردهته المحكمة فى ذلك جميعاً قائلة « إن صناعة التحرير لا تنهض دليلاً على العلم » ثم تقول عن الصحافة « وحيث أن حرفة الصحافة التى نسبها المدعى لنفسه قسبان ، قسم يبحث فى علوم وفنون مخصوصة وهى المجلات غير اليومية ، وهذه شرفها بشرف ما تبحث فيه وغزارته ، وهذه الصحافة لا يدعيها الشيخ على لنفسه ، وقسم لا يختص بموضوع مخصوص وهى الجرائد اليومية ووظيفتها إرشاد من تتكون منهم المملكة من الأفراد والعائلات والهيئة الاجتماعية والحكومة فهى معدة للأرشاد العام ، وهذه الصحافة جليلة جداً لها أثرها فى رقى المملكة من ناحيتها الداخلية والخارجية ويجب أن يتوافر فى صاحبها أعلى أنواع الثقافة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية كما يجب أن يكون على قدر من شرف النفس ونبل الضمير ، وأن يكون من أشد الناس محافظة على الكجالات والآداب حتى يمكنه أن ينفع بنصحه وأن يجمع الناس على رأيه فضلاً عن وجوب علوه بالسياسة الداخلية والخارجية ، إلى أن تقول « ولكن المدعى عليه لا يمكن أن يدعى لنفسه هذه الصحافة أيضاً ، ذلك لتقلبه فى المبادئ لغير سبب وتعرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة وسكوته

عن بعض ما يلزم الكلام فيه . . . ولا نريد أن نعدد له ما فعل وكفى بهذه القضية وحدها دليلاً على ذلك ، وعلى ذلك فالمدعى عليه ليس مشتغلاً بالصحافة قائماً بها وإنما هو يشتغل بشيء يشبهها لأغراضه ملبساً له ثوب الأرشاد والمصلحة العامة وهذا اشتغال بأخص الحرف وأدناها ، وعلى ذلك لا يكون محترفاً بالصحافة وإنما هو يحترف حرفة أخرى دنيئة ،^(١)

ومهما يكن من أمر هذا الحكم فإن الصحافة خسرت فيه ، لأن اتهام قطب من أقطابها بجمله السياسة الداخلية والخارجية كفيل وحده بأن يسقط كثيراً من الصحف والصحفيين في ذلك الوقت ذلك أن الشيخ علي يوسف كان أقدر صحفيي العصر في أفقه الواسع ونظرته العميقة للأمور وفهمه الدقيق لشؤون السياسة في البلاد الإسلامية جميعاً ، فإذا كان هذا الحكم صحيحاً حق لمؤرخي الصحافة المصرية أن ينكروا وجودها في تلك الحقبة من الزمان ، ولكنهم حكم لا يتصل بالشرع لأن الغرض ظاهر فيه ، وكأن الأفندي قاضي القضاة والتدوين معه والتقاليد من حولها قد تكاثفت على إصداره في هذه الصورة التي إن دلت على شيء فأما تدل على أن السياسة وحدها كانت صاحبة الموقت جميعاً

وقد استطاع شيخنا أن يمضى في صحافته بالرغم من حكم المحكمة وبالرغم من ثورة التقاليد بل استطاع أن ينتزع من العامة أصحاب هذه التقاليد الإعجاب بصحيفته والحرص على قراءتها ثلاثة وعشرين عاماً حتى عين شيخاً للسادة الوفائية ونال رتبة الباشوية فودع المؤيد في سنة ١٩١٣ بكلمة مؤثرة إذ هو يودع كما يقول « المهنة التي احترمتها واعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة كثيراً للهيئة الاجتماعية » ،^(٢)

وينبغي أن نذكر المترجم ونحن نحتم سيرته أنه جذب بأدبه وعلمه عظماء الجيل إلى التحرير في (المؤيد) التي زعمت المحكمة الشرعية أنها ليست صحيفة

(١) المقطع في ١١ أغسطس ١٩٠٤

(٢) المؤيد في ٦ مارس ١٩١٢

قيمة بالتقدير والإعجاب ، وكان في مقدمة من حرقها مصطفى كامل والشيخ محمد عبده وسعد زغلول بك وإبراهيم المويلحي وفتحى زغلول باشا وقاسم أمين ومن إليهم من النخبة التي كان لها شأن في جميع مرافق الحياة المصرية ^(١) بل استطاع المترجم أن يكون بأمثال هذه النخبة حزب الإصلاح الذي نافس سائر الأحزاب المصرية الأخرى

وكذلك يجدر بنا أن نقرر حقيقة ساء الظن بها كثيرون من الفرنجة المعاصرين ، فقد أشاعوا أن الأجانب في مصر كانوا أبغض الناس إلى قلبه ، وأنه كان خاضعاً في تصرفاته معهم ومع سائر المسيحيين لتعصبه الديني من غير روية أو تفكير ، وينفى ذلك كله صداقته لكثير من الصحفيين الفرنجة المعاصرين ، وفي مقدمتهم « مونييه » الذي أرّخ له فأكد بعده عن هذا التعصب ومدح سيرته في هذه الناحية من تاريخه الطويل ^(٢)

(١) ذكريات من حياة المرحوم على يوسف بقلم ع.ع. شلي .

(٢) munier, La Presse en Egypte

مصطفى كامل

يمثل مصطفى كامل الزعيم المصرى الشاب طورا من أطوار الصحافة العربية فى مصر كما تمثل حياته فى الصحافة طورا اجتماعياً جديداً ، فقد كان العهد الذى عاش فى أعطافه مصطفى كامل يرى الصحافة « حرفة دينية » ، وهو رأى صدر عن هيئة رسمية مصرية وجاء فى حكم من أحكام القضاء الشرعى ، ثم استكمل مصطفى زعامته عن طريق الصحافة وبها شق طريقه إلى الخلود زعيماً لجيله وأسوة حسنة على مدى الأجيال .

ولد صحفينا فى سنة ١٨٧٤ وأتم دراسته الابتدائية كدانه من أبناء جيله ثم تخير دراسته العليا فى مدرسة الحقوق ، واختارها كما يقول « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد ، وبانت ميوله الصحفية وهو تلميذ فأنشأ مجلة مدرسية ؛ وهو أول لون من ألوان النشاط الصحفى لتلميذ فى مصر وقد سماها « المدرسة » وكان شعارها « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » وهو اتجاه يبين عن صحفى يعرف رسالة الصحافة ويقدر مكانتها فى حياة الشعوب

ثم يفرغ الكاتب من دراسة القانون ، ويفزع إلى الصحافة المعاصرة يودعها من آماله وآياته الشئ الكثير ، وهو هاو حقاً من هواة الكتابة والتحرير غير أنه مدفوع بهاتف من نفسه ، وهو هاتف يؤمن بالصحافة ويرى فيها وسيلة الحسنة لأداء الرسالة الوطنية على أحسن الوجوه ، وكان العهد قد خلا من الصحف التى تعجب الفتى الصحفى المتدفق حماسة ووطنية ، غير أنه وجد ضالته فى صحيفة الأهرام سنة ١٨٩٥ وكانت الأهرام منذ سنة ١٨٨٤ تحمل

علم الجهاد الصحفي في عنف حير المسؤولين وأقبض مضاجعهم ، وكَم من القضايا
الصحفية أثارتها قصة الأهرام إذ ذاك !

مضى المترجم إلى الأهرام ففسحت له صدرها وتوثقت عرى الود بينها
وبين صاحبها ومحرريها ، وأفردوا له في مبنائها حجرة هي في اعتبار التاريخ
أول ناد للحزب الوطني ، إذ كان المعجبون به والساخطون على الحياة السياسية
المعاصرة يلتقون فيها ويتبادلون الرأي وعن هذه الحجرة الصحفية صدرت
أول التعاليم الوطنية بعد الاحتلال^(١) ، وكانت أهم مقالاته في جريدة الأهرام
مقالا استغرق صحتها الأولى عن « الوعود الصريحة » ، وهي وعود الجلاء
المتكررة ، وهو هنا صحفي عنيف ساخر غير أنه ذو أسلوب رفيع لا يكبو بالفظ
خارج أو عبارة جارحة ، وإنما هو يطالب « الشرف البريطاني الجليل الشأن
الرفيع البليان »^(٢) بتحقيق الوعد وتنفيذ الكلمة ، وهو ينشر بعدئذ حديثاً
صحفياً مع السير بارنج أي « اللورد كرومر » له خطره ومكاته كعمل صحفي
وله آثاره كعمل وطني ، وتمد الأهرام في رحابها لمصطفى كامل وله فيها بين
آن وآن مقال ناري إن صح التعبير ، وقد أحس قراؤها هذا اللون من البيان
الصحفي دون أن يعرف إلا القليلون أن صاحبه مصطفى كامل لأنه أخفى
الإسم ورمز له كما يصنع كبار الصحفيين الذين يعينهم الموضوع ولا يسيئهم
إنكار الذات .

ثم ينشئ المواطنون جريدة « المؤيد » سنة ١٨٨٩ وهي جريدة الشيخ
علي يوسف ، وهنا يساهم مصطفى كامل في تحريرها وإن لم يكن من أعضائها
المؤسسين أو محرريها الأصليين ؛ وينشر فيها المقالات وتذيع عنه الخطب ،
وهو في ذلك الوقت لا يقتصر على صحافة مصر بل يذهب إلى أوروبا داعية

(١) ذكر لنا قصة الحجرة التي أفردتها الأهرام له المرحوم جبرائيل قتلا باشا
صاحب الأهرام .

(٢) الأهرام في ٤ و ٢٨ يناير ١٨٩٥

لمصريذود عن قضيتها بالخطب ونشر المقالات، وكانت وكالات الأنباء تنقلها إلى أرجاء المعمورة والأهرام تنشرها برقاً والمؤيد تذييعها تفصيلاً، واستقبلت الصحافة الفرنجية في مصر هذا الفتى المجاهد استقبالا حسنا وقالت لاريفورم «إن جهاده لجدير بالفخر»^(١)

ويرى مصطفى كامل آخر الأمر أن استقلاله بصحيفة يقتضية واقع الحال فإن المؤيد وغيرها من الصحف قد فترت حماسها بعض الشيء، ولم تعد تحتل سياسته العنيفة فأعد العدة لإنشاء (اللواء) في ختام القرن الماضي؛ ثم صدر العدد الأول منه في ٢ يناير سنة ١٩٠٠، وهو يسميه اللواء لأن عند هذا الاسم يخفق كل قلب وتجتمع لديه أصدق الآمال، وهو يرجو بصحيفته أن يخدم «الوطن والإسلام بأشرف السبل وأنفعها، والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة وبين كافة المسلمين من جهة أخرى، والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية، وترقية التجارة والصناعة الخ»^(٢)

ويعتبر إنشاء «اللواء» مفترقا في صحافة مصر الوطنية إذ ذاك فقد حمل الجهاد وحده تقريرا في إيمان الواثق بحقه المؤمن بعقيدته وكانت اللواء فيما بعد لسان الحزب الوطني، وهي الصحيفة الوطنية التي كان نظام العمل فيها مثالا يحتذى من حيث الإدارة والتحرير، وهي أول صحيفه بعد المؤيد تستخدم الآلة الكهربية في طبعا، ومن أول الصحف التي عنيت بمادتها وفسحت صدرها لجليل الأمور وخطيرها في صفحات ثمان، وهي أول الصحف المصرية التي نشرت أخبار مصر وخطب المسؤولين فيها، ووصفت الحفلات الكبيرة بالبرق، ومحررها أول من أسس الشركات الكبرى للصحافة بالتزاماتها القانونية كما يحدث في أوروبا عادة^(٣) وهو الحريص على خدمة الصحافة بأرسال

(١) مصطفى كامل للرافعي ص ٨٤ و ٨٥ .

(٢) راجع اللواء في ٢ يناير ١٩٠٠

(٣) جريدة الشعب في ٨ مايو ١٩١٢

الشبان إلى أوروبا لتعلمها أو إعدادهم بالتثقيف والتدريب في جامعاتها ومدارسها الخاصة وإذا صح ما ذكرته بعض الصحف وهي تؤرخ للصحافة المصرية خلال الحرب العظمى فإن اللواء كانت ثالثة أو ثانية الصحف المصرية ثراء ، فمقدرة مواردها من هنا وهناك بثمانية وثمانين ألف جنيه مصرى وهو مبلغ قادر فيما نعلم على تقديم الصحيفة على زميلاتها المعاصرات خير تقديم بجانب رأس مالها من الوطنية الصحيحة وحرارة كاتبها وشيعته من الوطنيين المعروفين ، وقد أردف مصطفى كامل باللواء صحيفة شهرية تشمل خلاصة لأطيب ما أذيع في اللواء اليومية من رأى أو مقال^(١).

وقد برز مصطفى كامل وجود في الصحافة العربية حين استقل بلوائه ، وكانت له فيها فصول لم تكن معروفة ولا معهودة في صحافة ذلك العهد ، فقد شغل الكاتب قراءه بأمور التعليم ، والتعليم الشعبى الذى ينبغى أن يقوم على أكتاف الشعب ليحس أثره الشعب نفسه فتتحقق أغراضه فى الحرية والاستقلال وقد استطاع مصطفى كامل أن يجعل من هذا الموضوع علما يجتمع عنده الوطنيون على اختلاف مذاهبهم وتباين حماسهم للوطن فشرعوا ينشئون المدارس ويفكرون فى جامعة مصرية تنشئ الشباب تنشئته وطنية يعجز أمامها الاحتلال إذا طلب السلامة أو أبى الجلاء .

ثم يمضى فى جريدته وله فى كل يوم رأى صائب فى شئون مصر والشرق ، ودعوة إلى نهضة بلاده بشتى السبل والوسائل وكان قلبه أعنف الأعلام المصرية فى معالجة الشئون الدستورية أو السياسية فهو قلم يطالب بجانب حرية مصر واستقلالها ، بحياة نياية صحيحة ، وكانت أدق مواقف صاحب اللواء وأخطرها من الناحية التاريخية رسالته فى قضية دنشواى ، هذه القضية التى

(١) لدراسة هذه الناحية من تاريخ مصطفى كامل راجع كتاب « تطور الصحافة المصرية » للمؤلف ص ١٤٨ وما بعدها .

فاضت بذكرها الكتب ، وكان لها من الآثار السياسية ما أحسه معاصروه في مصر وفي خارج مصر من البلاد الأوروبية وفي مقدمتها إنجلترا وفرنسا .

وقد عاب البعض على مصطفى كامل أنه كان في جهاده الصحفي والسياسي يرى حياة مصر واستقلالها مرهونين بالبقاء في الدائرة العثمانية ، وقد خفي على العائين أن مطالبة الإنجليز بالجللاء ما كان يمكن أن يستقيم لها منطق إذا صحبها ضيق بمقام السلطان الأدبي في مصر ، إذ أن خصومته للإنجليز كانت تستوجب رعاية الحقوق السلطانية التي أقرتها معاهدة لندن (١٨٤٠-١٨٤١) وبذلك استطاع مصطفى كامل أن يجعل القضية المصرية قضية دولية يابى أن تؤلب الدول فيها على إنجلترا ، احتراماً للمعاهدة التي أقرتها وتعهدت برعايتها ، فإذا فرغ من الإنجليز وتم جلاؤهم كان أمر المظاهر الأدبية التي كانت لسلطان تركيا هيناً على المصريين ، فكان لهم من شخصيتهم ما يؤهلهم لتصفيتها على الوجه الذي يحبونه .

وبعد فقد كان مصطفى كامل صاحب مدرسة صحفية جديدة ، لا يعرف الإسفاف في نضاله أو منازلاته الصحفية ، وهو يعالج المسائل المصرية بوسائل وأساليب جديدة كل الجدة ، ويكتسب احترام خصومه وأصدقائه على السواء ، ويعيش معاونوه في التحرير راضين كل الرضى ، يحفظ لهم كرامتهم ويؤدى لهم حقوقهم ولا يبخل على قادر أو مجتهد بجزاء يعوضه عن الجهد الذي بذله في سبيل مهنته .

وأنشأ الكاتب صحيفتين فرنجيتين توأخيان صحيفته العربية فسافر في أواخر سنة ١٩٠٦ هو وصديقه محمد فريد بك لشراء معدات الصحيفتين من أوروبا واستقدام المحررين لهما ، ثم ظهرت الصحيفتان لتندادار اجبسيان L'Etandard Egyptian في مساء يوم ٢ مارس وذى اجبشين استاندرد The Egyptian Estandard في صباح اليوم التالي

وعند المزيخ العادل أن إنشاء هاتين الصحيفتين من أبرز خدمات مصطفى

كامل الصحفية للقضية الوطنية لأن إنشاء الصحيفتين ليس شيئاً بجانب ما نشر فيهما من المعاني التي كان يعز عرضها على الأجانب في مصر والخارج ، وهو غرض دفع إلى تحقيقه ماذهب اليه الأجانب في مصر أعداء الوطنية المصرية وخصوصاً استقلال وادى النيل ، وفي ذلك يقول مصطفى كامل : إن قصداً من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علماً بخطتنا الوطنية التي غير خصوصها شكلها وقلبوا حقيقتها . . وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأنا ننادى بالبدنضاء والتعصب الديني ، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة ونثبت للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالي السامي هو أن نرد لمصر مكانة في العالم تليق بتاريخها وماضيها ومركزها ،^(١)

وقد استطاع صحفينا أن ينال موافقة جريدة لوفيجارو Le Figaro على أن تأذن للجريدة الفرنسية الوطنية بنشر مقالات بيير لوتي Pierre Loti عن مصر ، على أن يكون نشرها في الجريدتين في يوم واحد ، وهو عمل صحفي نادر المثال في ذلك الوقت

وقد مضى مصطفى كامل يعالج حياته السياسية والصحفية بالرغم من غاشيات المرض التي كانت تلتابه بين آن وآخر ، ولم يحل المرض في أى وقت من الأوقات دون نشاطه الصحفي فهو يحرر صحيفته مريضاً أو معافى ويكتب مقالاته بنفس القوة والعنف وبنفس الإشراف التي تميز بها أسلوبه مهما تكن حالته الصحية تستوجب الراحة والاستجمام

على أن كفاح مصطفى كامل في الجانب الصحفي قد أنصب كله على الناحية السياسية التي شغلت حياته جميعاً وأبت عليه أن يفكر في مسائل مصر

(١) من خطبة مصطفى كامل في فندق الكوتنتال في ١٢ مارس ١٩٠٧ احتفالاً بظهور الجريدتين . راجع تطور الصحافة المصرية للمؤلف ص ٢٣١ الطبعة الثانية .

الاجتماعية وينظر إليها بهذه النظرة الحرة التي كان يعالج بها القضية الوطنية ،
فبينما كان مصطفى كامل يرنو إلى أهداف وطنية رفيعة ويرجو لحياة مصر
أسلوباً سياسياً يتفق وأرقى ماتعيش عليه أوروبا فقد أبى على صحيفته اللواء
أن توازر حركة الإصلاح الاجتماعى التي تزعمها أمثال قاسم أمين ، بل كانت
« اللواء » حرباً على هذه الحركة وأفردت صفحاتها لخصومها والناعين عليها .

وبحسب المؤرخ أن مصطفى كامل وقد نجح في التوفيق بين العناصر الدينية
كان يأبى أن تتوزع طرائق النظر في الشؤون الاجتماعية العامة حتى لا تتأثر
الحركة الوطنية نتيجة لهذا التوزيع في أمور داخلية لا يضر إهمالها إلى أن
تستقر أوضاع البلاد السياسية وقد بقى مصطفى كامل في الميدان حتى استبدت
به العلة وقضى في فبراير سنة ١٩٠٨

مراجع البحث

تتصل دراسة أعلام الصحفيين العرب بدراسة تاريخ الصحف في الشرق العربي كله ، وتعد دراسة بعضهم دراسة عميقة حين تعوزنا هذه الصحف ، فيضطر المؤرخ إلى العودة إلى الوثائق المختلفة أو الكتب المتباينة ، وهذا ما فرضه البحث علينا حين بدأنا تأريخ محمد علي الكبير مثلاً وحين عز علينا الحصول على جرنال الخديو وهو أول صحيفة صدرت في مصر بل في العالم الشرقى جميعاً سواء كان عربياً أو إسلامياً ، إذ كان لولى النعم فيها نصيب هام في تحريرها وفي إخراجها .

والوثائق التي عدنا إليها كثيرة متعددة ، وأكثرها في المحفوظات التاريخية بقصر عابدين ، وهي الوثائق التي أشرف على جمعها وأشار بترتيبها المغفور له الملك فؤاد الأول ، فكانت ثروة علمية ضخمة في تاريخ مصر الحديث في جميع نواحي النشاط الفكري .

وما كان يمكن لدراسة محمد علي وإسماعيل كعقلين من أعلام الصحافة العربية أن تحمل هذه الوثائق التي جلت ما كان مستخفياً من نشاطها في هذه الناحية من التاريخ .

وهذه الوثائق في عدة لغات ، أكثرها في اللغة التركية ثم في اللغة العربية ثم في بعض اللغات الأجنبية ، وقد قام على تنظيمها ثقات في هذه الناحية من ترتيب المعلومات وتبويبها ، فأفردوا لها كراسات ومحافظ ودوسيهات ، يستطيع الباحث أن يعود إليها مطمئناً إلى اليد التي نظمتها وجعلت منها مصدراً من أعظم مصادر التاريخ المصري الحديث .

ثم اضطررنا الظروف إلى استقراء الكتب التي كتبت في تاريخنا الحديث عربية كانت أو أجنبية ، فأن تصوير هؤلاء الأعلام لا يتم إلا بعد أن نستمد من هذه الكتب بعض ميوهم واتجاهاتهم ، والقطع برأى فيهم يقتضى الرجوع إلى اختلاف المؤرخين في النظر إليهم ، وبقدر من الاستنتاج المنزه عن الغرض يستطيع كاتب التراجم أن يرسم صورة نزيهة عن الشخصيات التي يريد أن يدرسها ويعلن عنها في كتاب مفتوح ، وقليل من هذه الكتب عني هؤلاء الأعلام صحفيين وأصحاب قلم ، اللهم إلا كتاباً واحداً أنشأه الكونت فيليب دي طرازي عن تاريخ الصحافة العربية ونشره في أربعة أجزاء ، وكان مصدره فيما كتب المجموعة الصحفية التي كان يملكها والتي اشتريتها منه حكومة لبنان ، وهي مجموعة ضخمة جاوز عدد نسخها أربعة آلاف نسخة من جميع الصحف التي صدرت باللغة العربية في أرجاء المعمورة تقريباً ، وقد اطلعنا على بعضها فكانت بحق ثروة لمن يريد أن يستزيد في دراسة هذا الموضوع .

ثم عدنا إلى الصحف والمجلات العربية التي صدرت في مصر وكان لها صلة بموضوع أعلامنا من عهد محمد علي الكبير إلى مطالع القرن العشرين ، وقد تجاوزت هذه الصحف ألف جريدة ومجلة حتى يستوفي البحث حقه ويبلغ غايته ، ومن بينها صحف لا توجد في مصر أولاً توجد في دار الكتب المصرية بل توزعت بين دور الكتب الخاصة والعامة الأخرى وبعضها عثرنا عليه في المكتبة الأهلية بباريس . ونضرب لذلك مثلاً صحيفة « وادي النيل » لصاحبها عبد الله أبو السعود أفندي التي وجدنا منها عددان فقط في مكتبة الجمع العلمي المصري ، وكذلك كان شأن صحيفة « صدى الأهرام » لصاحبها سليم وبشارة تقلا ، وجدت منها مجموعة لا بأس بها في مكتبة المغفور له طلعت حرب باشا وهكذا كان شأن بعض الصحف الأخرى التي لا يتسع المقام لذكرها .

ولم نشر فيما قرأناه من صحف ومجلات إلا لما يؤكد للقارىء الحقيقة التاريخية الخالصة ، وأغفلنا ذكر صحف كثيرة من شأنها أن تفيد الكاتب وليس من الضروري أن ترصد في الصفحات أو الهوامش ، فقد كانت معاوناً ، سواء كانت صحفاً صديقة لمن نذكره أو خصماً له فقد تحسن خصوصية الصحيفة لمن تخصمه ، وهذه نظرة للأمور لا تقرر إلا إذا عالجها الإنسان غير متأثر بأى مؤثر .

وفي الصفحات التالية سجل للكتب التي رجعنا إليها ننشره ليستزيد من أراد الاستزادة لا في تاريخ هؤلاء الأعلام ولا في تاريخ الصحافة المصرية والعربية فقط بل في التاريخ المعاصر بجوانبه المتعددة .

١ - وثائق لم تنشر

اكتفينا بالإشارة إليها في الموامش ومرجئها إلى محفوظات عابدين التاريخية

٢ - كتب عربية ومعربة

- | | |
|---|---------------------------------|
| تاريخ الطباعة والصحافة في مصر خلال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) القاهرة ١٩٤١ | ابراهيم عبده |
| تاريخ الوقائع المصرية (١٨٢٨ - ١٩٤٢) القاهرة الطبعة الثالثة . | ابراهيم عبده |
| تطور الصحافة المصرية وأثرها في النهضة الفكرية والاجتماعية . الطبعة الثانية ١٩٤٥ . | ابراهيم عبده |
| أعلام الصحافة العربية . الطبعة الأولى ١٩٤٤ | ابراهيم عبده |
| حول الصحافة في عصر اسماعيل (حقائق غير مطوية — رد على مقال) ١٩٤٧ . | ابراهيم عبده |
| الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف الخبايا عن فنون أوروبا . | الشدياق (احمد فارس) |
| تاريخ آداب اللغة العربية . الجزء الرابع . القاهرة ١٩١٤ | جورجى زيدان بك |
| تخليص الإبريز في تلخيص باريز . القاهرة ١٣٦٥ هـ | رفاعة بك رافع الطهطاوى |
| { مصر للبصريين . . الأجزاء الرابع والخامس والسادس والسابع طبعة ١٨٨٦ } | سليم خليل نقاش
وجرجس مينخايل |
| عصر اسماعيل . جزءان . القاهرة ١٩٣٢ . | عبد الرحمن الرافعى بك |

— ١٤٩ —

عبد الرحمن الرافعي بك الثورة العراقية والاحتلال الإنجليزي . القاهرة
١٩٣٧ .

عبد الرحمن الرافعي بك مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال
(تاريخ مصر القومى من ١٨٨٢ — ١٨٩٢)

عبد الرحمن الرافعي بك مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية .
القاهرة ١٩٣٩

عبد الرحمن الرافعي بك محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية .
القاهرة ١٩٤٢

على مبارك باشا الخطط التوفيقية . عشرون جزءاً في خمسة
مجلدات . بولاق ١٣٠٦ هـ

ع.ع. شلبي ذكريات من حياة المرحوم على يوسف
فيليب دى طرازى (الكونت) تاريخ الصحافة العربية، أربعة أجزاء في مجلدين
بيروت ١٩١٣ و ١٩٣٣

محمود رشيد رضا تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
(ثلاثة أجزاء) مطبعة المنار ١٣٤٢ هـ

محمود عزى مبادئ الصحافة . القاهرة ١٩٤١

٣ — مخطوطات

السيد صالح مجدى بك حلية الزمن في وصف مناقب خدام الوطن .
دار الكتب المصرية ١٣٩٠ هـ

٤ — مقالات في صحف ومجلات

جريدة الشعب ٨ مايو ١٩١٢
مجلة الشباب مجلد سنة ١٩٣٦

— ١٥٠ —

العدد الأول من السنة الأولى — الجرائد	مجلة الهلال
العربية في العالم العدد الثامن من السنة الثانية	
عشر — تاريخ النهضة الصحافية في اللغة العربية	
في ٢٦ حزيران سنة ١٨٩٧ (الصحافة في	مجلة الأجيال
القطر المصري)	
السنة الثالثة — العددان الرابع والسادس	مجلة المشرق .

٥ — صحف أساسية للمراجعة

١٨٢٨ — ١٩١٢	الوقائع المصرية
سنة ١٨٣٠	وقائع كريدية
سنة ١٨٦٧	وادي النيل
سنة ١٨٧٠	روضة المدارس
سنة ١٨٧٥	روضة الأخبار
١٨٧٦ — ١٩١٢	الأهرام
١٨٧٦ — ١٩١٢	المقتطف
١٨٧٧ — ١٩١٢	أبو نضارة
سنة ١٨٧٩	التجارة
١٨٧٧ و ١٨٨١	مصر
سنة ١٨٨٠	مصر القاهرة
سنة ١٨٨٩	المؤيد
١٩٠٠ — ١٩٠٨	اللواء

١ — وثائق مطبوعة

Blue Books 1870-1914.

Livres Jaunes 1870-1914.

٢ — وثائق لم تطبع

Diplomatic Documents Concerning affairs of Egypt, SC.
SOC, T. 1. N679. The Egyptian Library.

٣ — الكتب

Baignières. P. L'Egypte Satirique, 1896.

Blunt, W. S. My Diaries. London 1919-1920.

Bowring. Report on Egypt and Candia. London 1840.

Cromer. Modern Egypt. 2 Vol. 1908.

Douin. Histoire du Règne du Khédive Ismail. 6 Vols. 1933-1941.

Hartmann. M. The Arabic Press of Egypt 1899.

Kyriacos Michael. Copts and Moslems Under British Control.
London 1911.

Munier. J. La Presse en Egypte (1799 - 1900) Notes et
Souvenirs 1930.

Sabry, M. La Genèse de l'Esprit National Egyptien
Paris 1934.

Weill, G. Le Journal, Origines. Evolution et Rôle de La
Presse Périodique. Paris 1934.

٤ — مقالات في المجلات العلمية

Artin, Y. Pacha. Etude Statistique sur La Presse Egyptienne.
Bulletin de l'Institut Egyptien 1905.

— ١٥٢ —

Bohola, F. Una Visita a Mohemmed Ali nel 1822. La Prima Stamperia et il Primo-Giornale. Revue Internationale d'Egypte 11 no Octobre 1905.

Reinaud. De La Gazette Arabe Turque imprimée en Egypte. Journal Asiatique 2° Serie Tome VIII 1831.

ه — الدوريات

La Progrès Egyptien 1869-1878

L'Impartial d'Egypte 1868.

Le Journal Officiel 1885-1942.

Le Moniteur Egyptien 1833.

Le Moniteur Egyptien 1874-1884.

تبت الأعلام

أرتين بك ص ٢٩
اسماعيل (الخدو) - أفندينا - ولى
النعم - الباشا) ص ١٩ و ٢٠
٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥
٢٦ و ٢٧ و ٢٣ و ٣٤ و ٣٧
٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٦ و ٤٧
٤٨ و ٥٠ و ٥٢ و ٦٠ و ٨٠ و ٨٩
٩٩ و ١٠٠ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤
١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٩ و ١١٠
١١٢ و ١١٧
اسماعيل صبرى ص ٣٤
اسماعيل صديق ص ٤٠
آل تقلا (سليم . بشارة .
جبرائيل) ص ٦٩ و ١٠٧
١٠٨ و ١٠٩ و ١١٠ و ١١١
١١٢ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٥
١٣٩
الجبرتى ص ٧
الجوهري ص ٣٦
السيد رشيد رضى ص ٧٩
السيد شهاب الدين ص ٣١
الشدياق (احمد فارس) ص ٢٣
٣١ و ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠
٤١ و ٤٢ و ٤٣ و ٦٢ و ١٠١ .

١
ابراهيم بك ص ٢٣
ابراهيم الأحذب ص ٣٨
ابراهيم الدسوقي ص ٢١
ابراهيم المولى ص ١٠٣ و ٩٩
١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٣٧
ابراهيم اليازجى ص ٣٨
ابراهيم باشا ص ٢٩ و ٧١
ابراهيم بك ص ١٦
أبو السعود ص ٢٧ و ٣٨ و ٩٩
١٠٠ و ١٠١ و ١٠٣
أبونضارة (يعقوب بن صنوع)
ص ٢٧ و ٥٠ و ٥١ و ٥٢ و ٥٣
٥٤ و ٥٥ و ٥٦ و ٥٧ و ٥٨ و ٥٩
٦٠ و ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ و ٦٥
٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٩٧
أحمد الثالث ص ٦
أحمد سالم ص ٥٢
أحمد عبد الرحيم ص ٢٨ و ٧٠
ادكار وينكر ص ٢٤
أديب اسحق ص ٤٧ و ٦٨ و ١١٦
١١٧ و ١١٨ و ١٢٠ و ١٢١
١٢٢ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٥ و ١٢٧

ح

حبيب أفندي ص ١٥
حسن العطار ص ٢٨ و ٣١
حسين أفندي ص ٣٠
حليم باشا ص ٦٠
حمزة فتح الله ص ١٢١

خ

خليل أغا ص ١٢٥
خليل سر كيس ص ٨٠ و ٨١ و ٨٢
٨٣ و ٨٤ و ٨٥
خيرى بك ص ٢٠

د

داود بركات ص ١١٥
دوساسى ص ٢٨

ر

رشيد الدحداح ص ٣٨
رفاعة رافع الطهطاوى ص ١٧ و ٢٢
٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٣ و ٣٤
٣٥ و ٣٦ و ٤٩
رويتز ص ٥٤
رياض باشا ص ٣٩ و ٦٢ و ٧٠ و ٧١
٩٣ و ٩٤ و ١٢٠

القضاي ص ٢٨

المتنبي ص ٣٦

المهدي ص ٥٤

الهللأوى ص ٧١ و ٧٢ و ٧٤

الوليد ص ٣١

أنطون الجليل ص ١١٥

أنطون موريس ص ٢٦

ب

بطرس البستاني ص ٤٤ و ٤٥ و ٤٦

٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٨١ و ١٢٦

بنفوس بك ص ١٢ و ١٥

بول دوبنيير ص ٥٤

بونابرت ص ٧

بيزلوتي ص ١٤٣

ت

توفيق (الخدوي) ص ٤١ و ٤٨ و ٦٠

٦١ و ٦٢ و ٧١ و ٧٨ و ١٠٩

١٢٨ و

ج

جمال الدين الأفغاني ص ٥١ و ٥٢

٦٨ و ٧٤ و ٧٧ و ١٠٥ و ١١٧

١٢٩ و ١٣٠ و ١٣١

جودت بك ص ٧١

جوما ص ٢٨

ز

زمزم ص ١٦
زينبيا (الكونت) ص ٢٠

س

سامى بك ص ١٨
سعد زغلول ص ٧١ و ٧٢ و ٧٤
١٣٧ و

سعید ص ٦ و ٢٠ و ٣٣
سليم البستاني ص ٤٥ و ٤٧ و ٨١
سليم الشدياق ص ٣٧ و ٣٩ و ٤٠
٤١ و ٤٣
سليم النقاس ص ١١٧ و ١٢٥
١٢٧ و

سليمان البستاني ص ٤٧

ش

شاكر شقير ص ٨٦ و ٨٧ و ٨٨
٨٩ و ٩٠

شاهين مكاربوس ص ٩٥ و ٩٦

شريف باشا ص ٥٣ و ٩٣ و ٩٤
١١٩ و

شيلان ص ٢٥

ص

صالح مجدى ص ٢٨

ط

طرازى (الكونت فيليب)
ص ٨٢ و ٨٧ و ٩٢

ع

عباس الاول ص ٣٣ و ٧١
عباس الثانى (الخدوي) ص ١٢٨
عبد الحميد (السلطان) ص ٥٢
عبد الخالق السادات (السيد)
ص ١٢٣ و ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٦
عبد العزيز (السلطان) ص ٣٨
عبد الفتاح نديم ص ١٢٨ و ١٢٩
عبد الكريم سليمان ص ٧١ و ٧٢
٧٤ و

عبد الله النديم ص ٥٣ و ١٢٥ و ١٢٦
١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩

عبد الملك ص ٣٢

عثمان بك ص ١٣

عثمان جلال ص ١٠٣ و ١٠٤

على بك الكريدى ص ٢٣

م
محمد الحايي ص ٦
محمد الصادق ص ٣٩
محمد أنسي ص ١٠٢ و ٢٧
محمد سلطان باشا ص ١٢٦
محمد عبد الرحيم ص ٧٠
محمد عبده (الأستاذ الإمام)
ص ٧٠ و ٥٢ و ٥٣ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٠
و ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥
و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ١٠٥
و ١١٠ و ١١٧ و ١٣١ و ١٣٧
محمد علي (الباشا . ولي النعم . الوالي .
أفندينا) ص ٧ و ٨ و ١٠ و ١١
و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦
و ١٧ و ١٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١
و ٣٢ و ٤١ و ٥٠ و ٥٩ و ٧١
محمد فريد ص ١٤٣
محمد أفندي ص ١١
مختار بك ص ١٥ و ١٧
مصطفى كامل ص ١٣٨
و ١٣٩ و ١٤٠ و ١٤١ و ١٤٢
و ١٤٣ و ١٤٤
ملطرون ص ٢٨

علي بك رفاعه ص ٢٣
علي ثبيب ص ٣٠
علي مبارك ص ٢٢
علي يوسف (السيد) ص ١٣٠
و ١٣١ و ١٣٢ و ١٣٣ و ١٣٤
و ١٣٥ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٩ و ١٤٠
عمر عبد العزيز ص ٣٢

ف

فارس شقير ص ٩٠
فارس نمر ص ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤
و ٩٥ و ٩٦
فان ديك ص ٤٤
فتحى زغلول ص ١٣٧
فيليب (الملك) ص ٨

ق

قاسم أمين ص ١٤٤

ك

كارنو ص ٦٦

ل

لوبر ص ٨
لويس صابونجي ص ٣٨

هـ	منو (الجنرال عبداللہ) ص ۸
ہائیکالیں ص ۲۷	مونٹیہ ص ۱۳۷
ی	میمو ص ۱۵
	ن
یعقوب صروف ص ۹۱ و ۹۲ و ۹۳	نہری (نصر اللہ) ص ۱۵
و ۹۴ و ۹۵ و ۹۶ و ۹۷ و ۹۸	نصیف الیازجی ص ۱۱۲
یوسف عربیلی ص ۸۶	نوبار ص ۱۱۹، ۲۷، ۳۹

— ١٥٨ —

للمؤلف

كتب في الصحافة

- ١ — تاريخ الطباعة والصحافة في مصر
خلال الحملة الفرنسية
الطبعة الأولى ١٩٤١
- ٢ — الوقائع المصرية (١٨٢٨—١٩٤٢)
الطبعة الأولى والثانية ١٩٤٢
الطبعة الثالثة ١٩٤٦
- ٣ — تطور الصحافة المصرية وأثرها
في النهضة الفكرية والاجتماعية
الطبعة الأولى ١٩٤٤
الطبعة الثانية ١٩٤٥
- ٤ — أعلام الصحافة العربية
الطبعة الأولى ١٩٤٤
الطبعة الثانية ١٩٤٨
- ٥ — حول الصحافة في عصر اسماعيل
(حقائق غير مطوية)
الطبعة الأولى ١٩٤٧

كتب في التاريخ

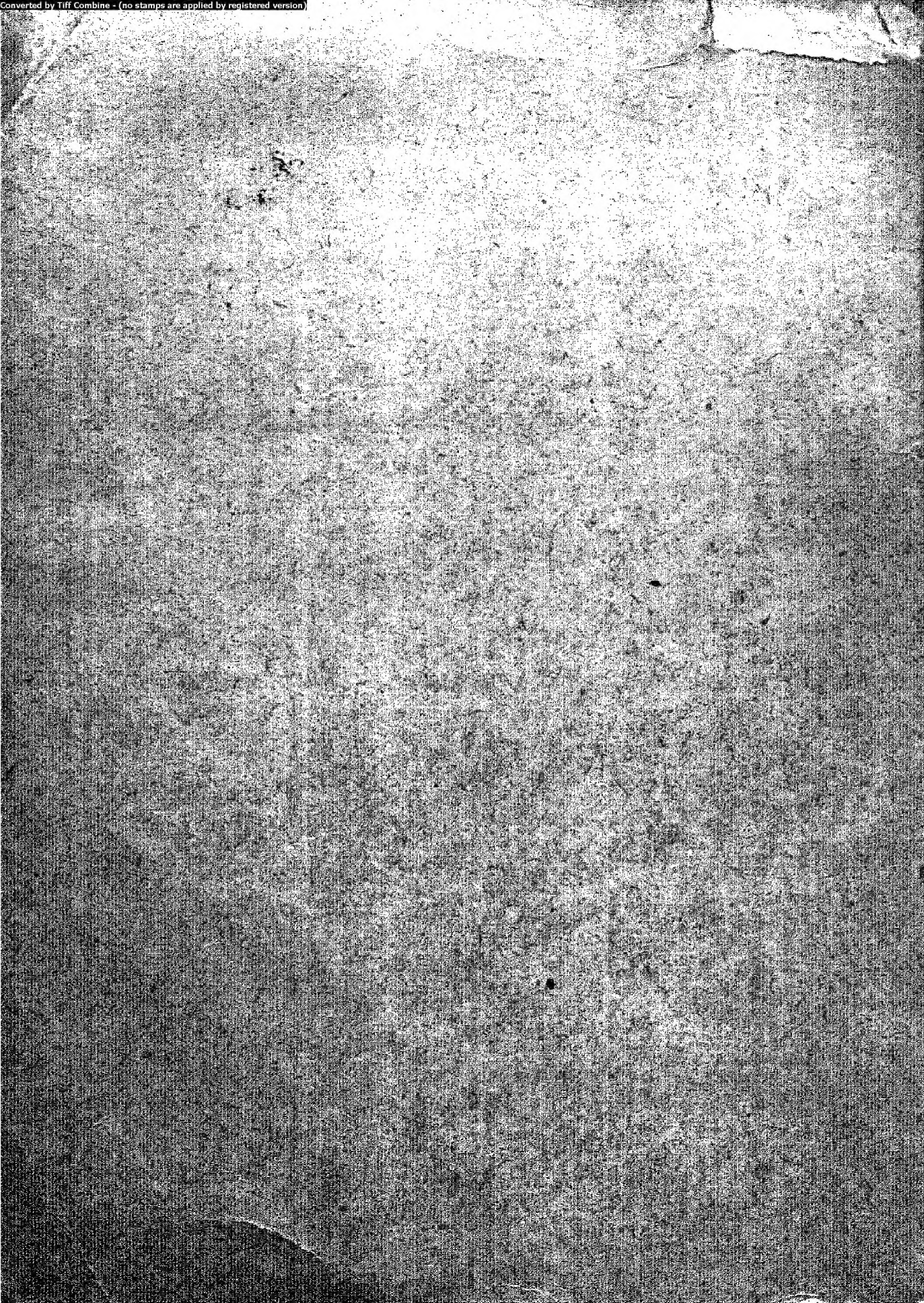
- ٦ — في السودان
الطبعة الأولى ١٩٣٦
الطبعة الثانية ١٩٤٦
- ٧ — تطور النهضة النسائية في مصر
بالاشتراك مع الدكتورة ديرية شفيق
الطبعة الأولى ١٩٤٥
- ٨ — تذكارات طلعت حرب
بالاشتراك مع الأستاذ علي عبد العظيم
الطبعة الأولى ١٩٤٥


كتب في الأدب


- ٩ — الحياة الثانية
الطبعة الأولى ١٩٣٣
الطبعة الثانية ١٩٤٤
الطبعة الثالثة ١٩٤٧
- ١٠ — في المصايف
الطبعة الأولى ١٩٣٤

فهرست الكتاب

صفحة	
٣	مقدمة الكتاب
٥	نشأة الطباعة والصحافة في الشرق الأدنى
١٠	محمد علي الكبير
١٩	الحديو اسماعيل
٢٨	رفاعة رافع الطهطاوى
٣٦	أحمد فارس الشدياق
٤٤	بطرس البستاني
٥٠	يعقوب بن صنوع
٦٨	محمد عبده
٨٠	خليل سر كيس
٨٦	شاكر شقير
٩١	يعقوب صروف
٩٩	ابو السعود والمويلحى
١٠٢	آل تقلا
١١٦	أديب اسحق
١٢٥	عبد الله النديم
١٣٠	علي يوسف
١٣٨	مصطفى كامل
١٤٥	مراجع البحث
١٥٣	ثبت الأعلام
١٥٨	للمؤلف



 Bibliotheca Alexandrina



0206201